مؤلفات
محمود
كامل

٤

• بائع الأحلام
• اللهب المدفون



مؤلفات
محمود
كامل

٤

بائع الأحلام
الذهب الدفين

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

مؤلفات
محمود
كامل

بائع الأحلام

الذهب الدفين

د. محمود كامل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

مقدمة

هذه هى المجموعة الرابعة من الأعمال الكاملة للدكتور محمود كامل . كانت المجموعة الأولى قد ضمت قصة « حياة الظلام » التى ترجمت ونشرت بالفرنسية وأخرجتها شركة مصر للتمثيل والسينما مع عشر قصص أخرى . منها قصة « الدرجة السادسة » التى نشرت ترجمتها بالفرنسية والانجليزية والألمانية وأخرجها التليفزيون المصرى . ومنها قصتا « الشيخ مرسى تزوج الأرض » و « الشيخ خليفة يقتل » اللتان نشرت ترجماتها بالفرنسية والانجليزية والألمانية .

وكانت المجموعة الثانية : تضم قصة « أرواح بين السحب » مع سبع عشر قصة أخرى منها أربع قصص نشرت ترجماتها بالفرنسية والانجليزية .

أما المجموعة الثالثة : « الحب الأصفر » فتضم هذه القصة التى أخرجت كتمثيلية اذاعية مع قصص أخرى .

وهذه المجموعة الرابعة : تضم قصتين طويلتين : « بائع الأحلام » التى أخرجت اذاعيا كمسلسلة شهرية ، كما أخرجت تليفزيونيا و « اللهب الدفين » .

وهذا الانتاج القصصى هو الذى أهل الدكتور محمود كامل لكى يصفه النقد الأدبى فى مصر بأنه « أستاذ القصة المصرية » وأن يضعه النقد الأدبى الأوروبى بين أدب موباسان ومارسيل بريفو عملاقى القصة الفرنسية .

بائع الأحلام

١

كان كل شيء حول عفت يذكرها بموت أبيها الذى قضى نحبه فجأة دون أن تتأهب أسرته لهذه النكبة · كل شيء حولها ينطق بالحزن · ويوحي بالحداد · الأثـــاث مغطى بالستر السود الكئيبة · الغرف مجردة من أبسطتها وسجاجيدها وقد ألقيت على ظهورها كأنها عجائز عابسة كشرت عن أنيابها ولوت شفاهها المجعدة · ! السكون يسود البيت الواسع الذى ولدت فيه وشبت فلم تعهده من قبل بهذا المظهر الحزين الذى يثير الانقباض ···

أهل « جنينة رشيد » أذاعوا عن أبيها المرحوم ـ أصبحت تضيف كلمة « المرحوم » كلما جاء ذكر أبيها ! ـ أنه طالما أثار فى الحى الضيق جوا من المرح والسرور بالحفلات التى اعتاد أن يقيمها بين كل فترة وأخرى والتى كان لها ـ الى حد ما ـ فضل فى تقديم بعض المطربين والمطربات المعروفين الآن فى مصر الى المجتمعات والمحافل العامة لانه كان يختار الناشئين منهم ويكلفهم بالغناء فى منزله الكبير ويدعو الى سماعهم أصدقاءه الكثيرين من كبار الأعيان والموظفين · وقد بلغ من ولعه بالموسيقى · وكثرة تردده على الحفلات الموسيقية أن تعلق ذات صيف ـ فى صدر شبابه ـ بمطربة ناشئة كانت تظهر بين فصول التمثيليات التى تعرض على أحد مسارح الأسكندرية لتلقى بعض مقطوعات غنائية · ولم يطق البعد عنها · فأستأثر بها · انتقلت معه الى القاهرة · وتزوجها · أصبحت عطية المطربة الناشئة سيدة بيته فى جنينة رشيد · وأم ابنته الوحيدة · عفت ·

كان يخيل الى المرحوم اسماعيل سعيد ـ فى بادىء الأمر ـ أن جيرانه من أهل « جنينة رشيد » سيخفى عليهم « أصل » زوجته عطية · ولكن سرعان ما ردد همس هؤلاء الجيران المعلومات الوافية عن عطية

« هانم » • وعن أختها رتيبة التى كانت تعمل ممرضة باحدى المستشفيات الخيرية بالأسكندرية • وزوج أختها عوض الذى بدأ حياته كاتبا بالميناء • ثم توسط اسماعيل سعيد فعينه باحدى الشركات فى القاهرة • وأوصى عليه صديقه ومحاميه الأستاذ على حسنى الذى كان مستشارا قانونيا لهذه الشركة فمنحته الشركة مرتبا يفى بحاجته • ولا يضطر رتيبة الى العمل فى المستشفيات لتعين زوجها على مواجهة حياتهما الجديدة فى القاهرة •

ظل همس الجيران يتردد بضعة أعوام منذ قدمت عطية من الاسكندرية • ولكنه أخذ يخفت بعد أن شبت عفت وتوثقت صداقاتها ببنات الجيران • أصبحت زياراتها لهن فى بيوت أسرهن • وترددهن عليها فى بيت أبيها • سمة من سمات الحى • ومحورا لاحاديث أهله الذين أجمعوا على أن عفت أجمل بناته • وأوفرهن ذكاء • وأقواهن شخصية •

خطر لعفت ذلك الماضى لانها أحست أنها مقبلة على مصير غامض مريب !

تغير كل شىء حولها فى هذا البيت •

حتى هى التى لم تعرف غير الابتسام لم تعد تستريح الا اذا عبست !

وقفت أمام المرآه وهالها منظر وجهها الأصفــر الشاحب · كانت كل قسمة من قسماته تعبس عبوسا أخافها ·· خافت من وجهها ! تكلفت ابتسامة ما ولكنها شعرت بأن عضلات وجهها قد أرهقها تكلف الابتسام ·· فأحكمت وضع الطرحة الحريرية السوداء على صدغها وتقدمت الى غرفتها وهى تبكى ··

كان « المرحوم » اسماعيل سعيد أكثر الناس حبا لابنته عفت · وعطفا عليها واهتماما بها ·· ولكن خيل اليها أنها تبكى شيئا آخر ·· شيئا لم يحمله نعش الى مقبرة رخامية كبيرة انتصب في مقدمتها « شاهد » مرتفع يحمل اسم الضيف الجديد الذى رقد تحته ! ···

خيل اليهـا أنها تبكى ·· تبكى وحدتهـا أمام مستقبل مجهول · وأنها تائهة ··· ضائعة وسط هذا البيت الكبير الذى كانت قبل أيام سيدته الآمرة الناهية ·

وأحست بأنها أصبحت تعيش مع والدتها فى كهف مظلم ·· فى مقبرة ! حتى الحديث العادى أصبحتـا تتبادلانه همسا · كأنهما تخشيـان أن يسمع الجيران حديثهما فينتقدون أسرة مات عائلها منذ شهـر ولم تتورع عن الحديث بصوت عال !

واقتربت والدتها منهــا وهمست وهى تدور فى أنحاء الغرفة بخطى مضطربة دون أن ترفع بصرها الى ابنتها أو تتجه بحديثها نحوها كأنها كــانت تخــاطب شخصا آخر ٠

ـ الى متى ياعفت هذا الصوم عن الأكل ؟ ـ فهمست عفت

ـ لا رغبة عندى ـ وعندئذ عادت عطيــة والدتها فقالت لها هازة رأسها وهى لا تزال تدور فى الغرفة مهتمة بتنسيق الستر السود التى غطيت بها المقاعد ٠

ـ لا فائدة فى كــل هذا يابنتى ٠ يجب أن تأكلى شيئا ٠٠ لقمة خفيفة يا حبيبتى ٠ لقد فقدت نصف وزنك

وسكتت قليــلا ثم التفتت فجــأة واستمرت قائلة وهى ترمقها بنظرة مشجعة ـ قومى يابنتى الله يهديك ٠ غيرى هدومك فان الاستاذ على حسنى سيجىء الآن ٠ انت التى ستتحدثين اليه ٠ فأنا لم يعــد فى راسى مخ لأى تفكير ٠ البركة فيك يابنتى ٠

وتذكرت توا اسم الاستاذ على حسنى المحــامى ٠ صديق «المرحــوم» الحميم الذى كان يقــوم بمبــاشرة

قضاياه • وشئونه الخاصة • فقد رأته كثيرا بالمنزل • طالما أجـابت على محـادثاته « التليفونية » التى كان يحرص أثناءها على أن يكون معها رقيقا غاية الرقة • كما كان يحرص على أن يتردد اليهـا كلما جاء لزيارة أبيها •

استعرضت فى خيالها فجأة كل ذلك الماضى القريب وأوجست شبه خيفة من تلك الزيارة • ولذا سـألت والدتها •

ـ ماذا يـريد الاستاذ حسـنى ؟ ـ فأجابتها وهى تتأهب لمغادرة الغـرفة كأنها خشيت هى الاخـرى أن تسـتدرجها الى شىء لم تكن تود حينئذ أن تصـارح به ابنتها •

ـ لا أدرى ياعفت • أخبرنى هـذا الصـباح أنه سيزورنا فى العصر قبل ذهابه الى مكتبه •• اننا لانعرف شيئا عن حالة المرحوم •• عاش ومات لاأدرى شيئا عما له • أو عما عليه • ـ وتقدمت متثاقلة الى الخارج وهى تتمتم فى حشرجة ـ لم نر بعد شيئا ! ما أشد عذابنا بعدك ياحبيبى ياأسماعيل •• ـ وارتفع صوت بكائها فى الردهة الكبيرة ••

وسرعان ماتساقطت عبرات عفت · بكت · بكت بحرقة · ونسيت أمهـا أنها نصـحتها بتناول شيء من الطعام كما نسيت هى أنها لم تذق طعم الأكل منذ ثلاثة أيام !

٢

أقبلت الخادمة الصغيرة تخبر عفت فى نحو الساعة السـادسة مسـاء بأن الأسـتاذ حسـنى ينتظر فى «السلاملك» فأبدلت ثوبها ووالدتها تدفعهـا دفعـا الى المرآة لكى ترتب شعرها الذى لم تعن به منذ ارتفع أول صـوت ينعى أباها · ووقفت والدتهـا خلف «شيش» الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة تراقب خطواتها وهى تهبط الدرج الرخامى ·· كانت نظرات أمها تستحثها على أن تسرع بلقاء محامى أبيها ·· أن تعدو عدوا الى هذا اللقاء ··

وتقدمت الى حيث جلس صديق «المرحوم» ومحاميه فأسرع بالوقوف ومد يده اليها وهو يتمتم فى صـوت ظهر عليه التأثر ·

ـ البقية في حياتك ياعفت هانم · تعرفين أنني يجب أن أعزى نفسى · «المرحوم» كان أقرب أصدقائي الى · فجعت فى موته فجيعة لا يعلم قسوتها الا الله · لا اصدق أن اسماعيل سعيد مات ·· لا أصدق حتى الآن ·

وأحنت رأسها ثم أطرقت الى الأرض صامتة وهى تجفف عبراتها بمنديلها الصغير ذى الدائر الأسود الرفيع ·

وانقضت فترة صمت · فلما رفعت رأسها لمحت والدتها ··· كانت لاتزال واقفة خلف « شيش » النافذة تراقبها

وأخذ الأستاذ حسنى يفرك يديه وقال لها فى صوت جاد

ـ المصيبة كبيرة ياعفت · ترددت طويلا فى أن أصارحك بما حضرت لاصارحك به · ولكن ··· ولكنك لست طفلة ·· يجب أن تعرفى ، كل شيء ·· ـ فلم تكد تسمع ذلك حتى رفعت رأسها وقالت فى صوت حاسم كأنها تؤكد له أنها قادرة على تحمل العبء الهائل الذى ألقى عاتقها

ــ نعم ! ــ وعاد يفرك يديه وهو يقول متلعثما

ــ أنا متأسف جدا أن أقول لك بأن « المرحوم » مات مدينا · تركة مثقلة بالديون ياعفت هانم · كلنا نعرف أن والدك كان مسرفا · لم يفكر قط في غده · ولكن لا يعرف أحد أنه توفي دون أن يخلف لك أو لوالدتك شيئا على الاطلاق ·· ترين · لا زلت مترددا فى أن أخبرك بالحقيقة لأنك لازلت مفجعوعة بموته ··

فاستجمعت قواها وقالت له فى صوت حاولت جهدها أن يكون هادئا

ــ لا · تفضل · لست طفلة كما قلت

ــ كان يمكننى أن أنتظر أسبوعا أو أسبوعين ولكن ··· الموضوع الذى جئت اليوم أحدثك فيه لايحتمل الانتظار ··

ــ وما هو ؟

ــ البيت ·

ــ ماله ؟

ــ منزوعة ملكيته ومعروض للبيع بالمزاد

فشهقت شهقة حادة وخبطت على صدرها بقوة · وهى تصرخ

ـ بيتنا ؟

ـ نعم · بيت « جنينة رشيد » كان مرهونا على أربعة آلاف جنيه والبنك نزع ملكيته

ـ وبعد ؟ ـ علامات الذعر الشديد بانت على وجهها لانه أسرع اذ ذاك فقال لها فى لهجـة تفيض حنـوا ورقة

ـ لا تيأسي من رحمة الله · لا تجزعى ·· أنا صديق « المرحوم » صديق العمر لا فرق بينى وبينكم · بيتى تحت تصرفكم · ـ وارتجفت اذ ذاك لهذا العـرض الغريب · ولم تستطيع اخفاء دهشتها فقالت له فى شيء من الانفة

ـ يعنى ؟

ـ تعرفين ياعفت أنى أعـزب · وبيتى فى المنيل ملكى ومفروش ولله الحمـد فرشـا كاملا ·· أنا أروح الى أحد الفنادق وأنت وعطيات هانم تشرفان عندى فى البيت · تحصل لى البركة الى أن يتحسن الحال ·

فرفعت رأسها الى الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة والتى كانت والدتها لاتزال واقفة خلف احدى نوافذها · وحدقت بصرها فى الرجل الذى أقبل يعرض عليها أن

تنتقل مع والدتها الى منزله لانه كان صديق أبيها «المرحوم» . وعز عليها أن تجد نفسها فجأة موضع شفقة رجل غريب ..

كان الأستاذ على حسنى المحامى فى نحو الخمسين من عمره متوسط القامة . ممتلىء الجسم . أبيض البشرة . لم تعبه التجعدات الخفيفة التى أخذت تبدو تحت عينيه وحول فمه الدقيق لان عينيه الزرقاوين كانتا تصرفان النظر عن كل شىء عداهما بعمقهما وبريقهما الهادىء الذى يوحى بالطيبة والدعة والحنان .

لحظ الأستاذ حسنى توا أن حديثه قد جرحها . فأدنى مقعده منها ثم قال لها فى لهجة مضطربة .

ــ أغضبت ياعفت ؟ــ فأجابته وهى تتكلف ابتسامة بجهد هائل .

ــ لا .. ولكن . لاتؤاخذنى ياأستاذ . لم أتعود بعد أن أجد نفسى فى هذا الوضع .. ألم يترك «المرحوم» غير بيت «جنينة رشيد» ؟

ــ ترك عزبة «منية الشرفا» فى الصف . ولكن الأرض مدينة . ودينها ضعف قيمتها . لم تسألين ..

عن هذه الأمور الآن ؟ لاتشغلى فكرك بما ينغصك ياعفت ·· ربنا موجود وأنا ·· أنا تحت أمركما أنت والسيدة الوالدة · أنــا واثق ان الله سـيعينني عـلى تحقيـق راحتكما · لاتظنى أننى أقدم خـدمة · تأكـدى أنه واجب · أنا شاعر تماما أنه واجب على ·

ــ شكرا · ولكن أيرضيك أن تعيش ابنة اسماعيل سعيد فى بيت · مهما كان · بيت رجل غريب ؟

ــ غريب ··! انه بيتك · ستكونين سيدة البيت ياعفت ·

وفهمت اذ ذاك أنه كان يرمى الى غرض أبعد من المعنى الذى تحمله كلمــاته ·· أدركت أنــه يــرمى مفاتحتها فى أمــر يخشى ألا تقبله ·· فلم تمكنــه من الاستمرار وقاطعته فى لهجة حاسمة ·

ــ أنا شاكرة ·· شاكرة جدا · ولكن «المرحوم» صرف على · وعلمنى حتى وصلت الى الســنة النهائية بمدرسة الفنون الجميلة لكى يعدنى ليوم كهذا · يوم اضطر فيه أن أشتغل لأعول نفسى وأعول أمى ·

ــ تشتغلين !

ـ نعم أشتغل ، أحسن منى اشتغلوا · هل الشغل عيب ؟

ـ لا ·· ولكن ما الداعى ··

ـ ما الداعي الى أن أقعد فى بيتك عالة عليك أنا وأمى ! لقد تجاوزت الثانية والعشرين ·· وأرجو الله أن يعيننى على تحمل هذه المسـئولية · ادع لى يا ·· ياعمى ـ وضغطت على كلمـة «عمى» التى كانت قـد اعتادت أن تنادى بها أصدقاء أبيها وفى مقدمتهم الأستاذ حسنى ·

كانت اذ ذاك قد تأهبت للوقوف ومدت يدها اليه فوقف هو الآخر وقد تجهم وجهه · أراد أن يقول شيئا فلم يستطع · اخترقت ممر الحـديقة واتجهت الى درج المنزل الرخامي وهو يشخص اليها · ولما التفتت خلفها رأته لايزال واقفا وقد فتح فمه ·

لم تكد تصعد الى غرفتها حتى تبعتها والدتها وهى تسألها فى لهفة

ـ ماذا عملت مع الأستاذ حسنى ياعفت ؟ ـ فأجابتها وهى تخلع معطفها ·

ـ لم أعمل شيئا · لم ؟

ـ رأيتك تقفين فجأة • وتهزين كتفك ثم تغادرين «السلاملك» مسرعة كانك قد سمعت منه ما لا يرضيك كان ينظر اليك مشدوها وأنت تولينه ظهرك وتبتعدين

ـ أكنت تريدين أن أبقى الى جانبه حتى الصباح ؟

أتعرفين ماعرضه على ؟

ـ لا •

ـ قال لى «تعالى أنت وأمك عيشا فى بيتى»

فسكتت والدتها قليلا كأن الخبر كان مفاجأة لها • ثم قالت لها فى حنان :

ـ منذ وفاة المرحوم والاستاذ حسنى دائم الاهتمام بنا والسؤال عنا والعطف علينا • كان أحب الأصدقاء الى أبيك

ـ عارفة

ـ لا • أنت لاتعرفين كل شيء

ـ كيف ؟

ـ لاتعرفين أن الاستاذ حسنى يعزك من زمن •• من زمن طويل • وان مناه أن •• أن يتزوجك •

فشهقت شهقة حادة وخبطت على صدرها ثم تراجعت الى الخلف وهى تتمتم

ـ يتزوجنى ؟ ـ **فتبعتها وهى تقول :**

ـ ماذا يعيب فى أن يتزوجك الاستاذ على حسنى ؟ متعلم . سمعته طيبة . ناجح فى عمله ولله الحمد . يملك بيتا فخما فى المنيل . فرشه فرشا فاخرا . رجل وجيه . يملأ العين ويشرف أية زوجة من مستوانا . أو حتى من مستوى أعلى منا ..

ـ ومن قال لك انى أفكر فى الزواج الآن ؟ أيليق أن نتكلم فى موضوع الزواج وجثة «المرحوم» لم تبرد بعد فى قبره ! لو عرف الناس ذلك لأكلوا وجهنا

ـ هل كتبنا الكتاب ولبسنا الطرحة ودخلنا الكوشة ! لاشك أن الموضوع يستحق التفكير .. وبعض الوقت .. ولكن حتى اذا اعتذرنا عن قبول الاستاذ حسنى فلا يجب أن نعامله كما عاملته أنت اليوم .

ـ لا أريد أن أتحدث فى موضوع الزواج ولا ان أفكر فيه . لا الآن . ولا حتى فيما بعد ..

ـ لم ؟

ـ لاأدرى ! ـ ثم أسرعت بمغادرة الغرفة ..

وشعرت عفت أن أعصابها قد تحطمت بعد تلك المناقشة التى دارت بينها وبين والدتها الى ساعة متأخرة من الليل .

كانت تلاحظ ذلك الاهتمام الذى طالما أبداه الاستاذ حسنى نحوها ولكن لم يخطر لها من قبل أنه يفكر فى أن يتزوجها مع فارق السن الكبير بينه وبينها . ولكن . بعد حديث والدتها رجحت أنه ربما يكون قد طلب يدها من «المرحوم» فأرجأه حتى يسألها ثم عدل عن أن يفاتحها فى ذلك .

انها لاتكره الاستاذ حسنى .. ولكنها أيضا لاتحبه ..!

لقد اعتادت فى حفلات الزواج أن تستمع فى نشوة الى الزغاريد التى تدوى أحيانا . مجلجلة . ممطوطة . كأنها صادرة من طبول فرقة موسيقية تعزف فى فرحة وبهجة . وأحيانا أخرى تضعف وتهزل بعد انطلاقها ثم تختنق فى الحناجر تحت ضحكة خجل وتردد ! اعتادت من قبل أن تنتشى من سماع الزغاريد .. وطالما شردت . وحلمت . بتلك الزغاريد تجلجل فى ليلة .. ليلة زفافها ..

ولكن عفت ليلتئذ كانت لاتزال مرهقة مضناة من سماع «الصوات» وعبارات الندب والعويل ، خيل اليها أن طاقة سمعها قد تقلصت وضمرت فلم تعد تقوى الا على تلقى الأصوات الحزينة · حتى تفكيرها · أصبح مكتئبا · منقبضا ·· لم يعد كيانها كله يصلح الا ·· الا للحزن ··

٣

عادت والدتها بعد بضعة أيام فحدثتها فى موضوع الزواج وكانت أكثر صراحة اذ قالت لها فى صوت متهدج كاد يتحول الى نحيب

ـ لست طفلة الآن ياعفت ·· أصبحت شابة يجب أن تفهمى كل شىء ··

وأدنت شفتيها المرتعشتين من وجهها ثم صاحت فى نوع من الاستجداء

ـ اننى فى حيرة من أمر حياتنا بعد أن تركنا المرحوم أبوك غارقتين فى الدين · لعلك لاتعرفين أن كل ما أملكه من المال لايتجاوز ثلاثين جنيها ـ فارتجفت

قليلا عندما سمعت ذلك .. لم تكن من قبل قد فكرت في أن تجهد نفسها لتعرف قيمة «الجنيه» وهـل يكفى جنيه واحـد أو اثنـان أو تسـعة لأسرة تتكون من أم وابنتها . واذا كان فى ذلك المبلغ الكفاية فلكم يوم ؟ ولكنها وقتئذ فكرت وهى تطرق الى الأرض فلم تهتد الى جواب ولذا سألتها

ـ وكم تكفى هذه الجنيهات التسعة ؟

ـ يجب أن نفكر فى طريقة لمواجهة هذه الحياة . فى حل لهذه المشكلة التى فوجئنا بها . وقد عزمت على الانتقال الى بيت خالتك رتيبة .

واشتدت رجفة جسمها اذ ذاك وقالت :

ـ سنعيش مع خالتى رتيبة ؟

ـ أين تريدين أن نعيش .. يجب أن ألجأ الى أختى الى أن يعدل ربنا هذا الحال مادام هذا البيت قد أصر الدائنون على نزع ملكيته وبيع أثاثه بالمزاد . أيمكن أن نبقى الى أن يقتحم «الدلال» علينا الباب ليلقى بنـا أنا وأنت الى عرض الطريق ؟ ماذا يمكن أن أفعل اذ ذاك ؟ أسحبك من يدك وأدور بك فى الشوارع بعد العز الذى اعتدنا أن نعيش فيه ؟

كان التأثر اذ ذاك قد بدا عليها فربتت عفت على ظهر أمها وهى تقول :

ــ لاتحزنى ياأماه .. سأشتغل ..

ــ تشتغلين ؟ ماذا دهاك ياعفت ؟ كاد قلبى يتمزق عندما أخبرنى الاستاذ على حسنى أنك صارحته بهذه الفكرة .

ــ وما العيب فى هذا ؟

ــ ولم ياابنتى . هل هرمت وفقدت الأمل فى زوج يتولى رعايتك ؟ ان الاستاذ حسنى لو طلب أية فتاة فى مصر لما تردد أهلها فى تزويجها منه . ومع ذلك فلست أدرى ما الذى يجعلك تنفرين حتى من الحديث عن هذا الزواج منه . مع انه عرض هذه الفكرة على المرحوم أبيك منذ كنت طالبة . ورجوناه أن ينتظر الى أن تتمى دراستك .

ــ اننى واثقة من أن المرحوم لو ظل على قيد الحياة لما قبل هذا الزواج .

ــ عندما كنا نعيش فى عز أبيك كان جـائزا أن نرفض عـريسا وعـريسين وثلاثة . الى أن يتقدم من ترضين عنه ونرضى كل الرضى . ولكن ..

ـ ولكنني الآن يتيمة · وفقيرة · وفي حاجة الى من يعولنى فيجب أن أقبل أول يد تمتد الى ·· أليس كذلك ؟ من أجل لقمة العيش ·! اذا كانت هذه اللقمة هي المشكلة الكبرى فسوف أتـولى حلهـا بنفسى كما صارحتك ·· سأشتغل وأكسبها · سوف ترين · يجب أن أشتغل لأكسب مايكفيك ويكفينى ·· لاتنقصنى يد ولا عين ·· ولا قدم ·· اننى فى كامل شبابى وصحتى وقوتى ·

وتركتها ثم غادرت الغرفة وهي تحبس دموعها ··

فكرت طويلا ولكنها لم توفق الى حـل ·· ماذا تفعل ؟ ماذا تعمل لتعول امها ؟ وأين ؟ مع من ؟

جالت بمد الحديث فى الصالون الكبير الذى علقت على جـدرانه اللوحات العـديدة التى رسـمتها بالفحم «الباستيل» ونالت فى معارض الكليـة السـنوية أولى الجوائز · أخذت تعيدها الى وضعها الطبيعى وقد قلبت جميعها منذ وفاة «المرحوم» على ظهورها ··

تلك اللوحات كانت تثير فى نفسها ذكرى عزيزة ·· الأيام التى كانت فيها تدأب على الرسـم سـاعات متوالية ·· حتى بعد أن يهجع الجميع ·· تحلم وتتخيل

وتطيل التفكير فى مستقبلها •• ثم تضفى على اللوحة أحلامها • وخيالها • وشاعريتها •

كم كانت وثيقة صلة هذه اللوحات بماضيها ومستقبلها ••!

أحيانا •• كانت تفكر فى الزوج الذى سيشاركها الحياة •• الزوج المجهول • كانت الفكرة توحى بالابتكار والخلق •• كانت تعد بعض هذه اللوحات لكى تزين بها بيت المستقبل •• بيتها •

كم كانت هذه الكلمة عزيزة • رائعة • عذبة •• «بيتى»

ان ذلك «البيت» الذى طالما رسمت «تصميمه» فى خيالها أيام «المدرسة» كما يرسم أبرع المهندسين المعماريين تصميمات المنازل التى يعهد اليهم برسمها كان هو الشىء الوحيد الذى يطغى على ذلك الخيال ويشغل الجزء الأكبر من اهتمامها ••

لم تترك شيئا فى ذلك البيت المجهول الا رسمته ثم هدمته وأعادت رسمه فى يوم تال أكثر روعة • وأشد فتنة واغراء • فى خيالها دائما • لم تترك شيئا قط الا عنيت به • من الرجل الذى سيحكمها ويحكم البيت الى شكل «تقفيصة» الدجاج فى ركن الحديقة خلف البيت••

وكثيرا ماساءلت نفسها بعد أن تنتهى من اختيار لون الورق والستائر لغرفة ما «ولكن هل سيحب هو هذا اللون ؟» ثم تسترسل فى تخيله «هو» ·

الا أن هذا الاسترسال لم يكن يرهقها ·· لانها فى كل مرة كانت تتبين أنها مصرة على «النمط» الذى اختارته لنفسها ·· الشاب الذى ترتفع قامته عن قامتها · لو أرادت أن تنظر الى عينيه وهى تعانقه لاضطرت الى أن تلقى برأسها الى الخلف فيتدلى شعرها لكى يغرى أصابعه الخشنة على العبث به ·· اذا أراد أن يقبلها أحنى صدره العريض وأطل عليها · من أجله «هو» كانت تدخر قلبها · وحبها · وجسمها ·ومستقبلها للرجل الذى سوف تحبه ويحبها وتحمل اسمه أمام الناس أجمعين ··

كانت من قبل تفكر فى كل ذلك وهى ترسم تلك اللوحات ·· كان أملها أن تزين بها غرف «بيتها» لتثير اعجابه · أما الآن فانها تفكر فى أن تستغل هذه اللوحات نفسها لتكسب قوتها وقوت والدتها المسكينة ··

طال هذا التفكير الشاق المرهق ·· وبدأت أضواء ذات فجر تتسلل الى غرفتها ··

ولم تشعر عفت الا ووالدتها تتسلل فى بطء الى داخل الغرفة وتغلق الباب خلفها ثم تتقدم وهى تتلفت حولها هامسة :

ـ ما آخر هذه الحيـاة ياعفت ؟ ـ فرفعت بصرها اليها ولم تجب ٠٠ واستمرت عطية قائلة ـ لم تبق الا بضعة قروش من الجنيهات الثلاثين ياابنتى ٠ هل عوض أفندى زوج أختى قادر على اعالة نفسه وزوجته حتى يعولنا نحن أيضا ؟

فأسرعت باجابتها وهى تحاول التظاهر بالجلد

ـ لاتجزعى فقد اتفقت مع احسـان صـابر ٠٠ صديقتى من أيام «المدرسة» على أن تساعدنى فى الحصول على عمل

فسألتها فى لهجة لم تخل من سخرية

ـ أين ؟

ولما لم تجب ٠٠ زفرت أمها نفسا طويلا حارا ثم غادرت الغرفة ٠٠

لم تكن عفت اذ ذاك قد تحدثت الى احسان ٠٠ ولكنها اضطرت أن تكذب أمام والدتها حتى لاتدعها تشك فى

أنها قادرة على أن تفى بالوعد الذى كانت قد قطعته على نفسها ٠

وأسرعت بارتداء ثيـابها ثم ذهبت توا الى منزل احسان بالجيزة وصارحتها ـ وهى تغـالب دمـوعها ـ بحقيقة الحالة التعسة التى انحدرت اليها ٠٠ وأطرق كل منهما الى الأرض وقد اعتمد صدغيه بين كفيه ٠٠

طال تفكيرهما مـدة ٠٠ وأخـيرا رفعت احسان رأسها ثم اقتربت من عفت وهمست فى أذنها

ـ ها هـو ذا خاتمى الماسى خـذيه ياعفت ٠٠ وتصرفى فى ثمنه كما تشائين واذا سألتنى أمى عنـه فسوف أخبرها أننى فقدته فى عـرس ابنة عمتى أول أمس ٠٠

استمعت عفت الى عرضها النبيل ثم حركت رأسها فى بطء معتذرة عن قبول هذا «الاحسان» منها ٠ ولكنها استمرت قائلة :

ـ لم تترددين ياعفت ؟ ألسنا صديقتى الطفولة ؟ ألا يجوز أن أفقد هذا الخاتم ؟

ـ شكرا ياحبيبتى ٠ جئت أرجوك أن تساعدينى فى الحصول على عمل ٠٠

ـ أين ياعفت ؟

ـ جئت أسألك ..

عادتا تطيلان التفكير مطـرقتين الى الأرض .. وفجأة صاحت احسان

ـ أتذكرين مسيو أرسينيو الذى كنا نشترى منه الألوان أيام المدرسة ؟

ـ أذكر

ـ مارأيك لو ذهبنا اليه وطلبنا منه أن يساعدك فى الحصول على عمل ..

وشعرت بشىء من الاطمئنان .. فقد كان مسيو أرسينيو .. تاجـر «البـويات» والالوان .. وأدوات الرسم والتصوير والنحت الايطالى العجوز بشارع قصر النيل يهتم بها اهتماما خاصا عنـدما كانت تتردد على حانوته الصغير لتشترى منه مايلزمها للوحاتها .. كان من أشد المعجبين بلوحة «بيتى» عنـدما دعتـه لزيارة المعرض الذى أقامته الكلية عامئذ .. طالما زهـا أمام زميلاتها بأن ألوان «بيتى» قد اشترتها من دكانه ..

وقضت تلك الليلة تحلم أحلاما مزعجة ..

وفى الصباح مرت على احسان وذهبتا سـويا الى أرسينيو وبدأت هى الحديث فأخبرته فى عبارة وجيزة مضطربة بأن ظروفا عائلية قاهرة أرغمتها على أن تبحث عن عمل ورجته أن يساعدها ..

فحصها الايطـالى العجـوز بنظرة طويلة من فوق نظارته ثم قال لها بفرنسيته الركيكة :

ـ أرجو أن أوفق الى خدمتك ياآنستى .. ولكننى أؤكد لك أننى كنت أتوقع دائما أنه سيأتى اليوم الذى تثورين فيـه على «شىء» فى حيـاتك .. كنت دائمـا تخيفيننى بهذه النظرات الحادة .. هذا الجبين العريض المرتفع .. هذه الأصابع الدقيقة التى يخيل الى أن شيئا ما ينقصها .. سوط مثلا ! ـ ثم سكت قليلا وزفر نفسا حارا وهو مستمر ـ اننى رجل عجـوز ياابنتى وقلما تخيب نظرتى .. لو انك كنت فى روما أو ميلانو لتهافت عليك النحاتون والرسامون الشبان الذين ينشدون المجد عن طريق استلهام الوحى من وجه معبر سخى القسمات كوجهك .. ولكن ـ فتشجعت قليلا ثم قالت لكى تغريه على الاستمرار .

ـ ولكننـا فى مصر .. أليس كـذلك يامسـيو أرسينيو ؟

فأطرق الى الأرض يفكر .. كأن ايجاد عمل لهـا أصبح مشكلة خطيرة .. وشعرت احسان بحرج الموقف فتظاهرت بالنظر الى احدى اللوحات ..

ولم تجد عفت بدا من أن تقف متأهبة للخروج وهى تقول :

ـ أشكرك ياسيدى .. سأبحث عن عمل فى جهة أخرى ـ فلم تشعر الا وهو يمد يده المرتعشة التى نتأت تجاعيدها وتجمعت حول عروقها النافرة ويقبض بها على ذراعها العارى ويلتهمها بنظراته .. وبعد قليل أدنى وجهـه من وجهها ثم قال فى لهجة لم تخـل من عطف وحنان

ـ لاتتمردى ياابنتى بهـذه السرعة .. اهـدأى قليلا .. أعدك بالبحث لك عن عمل . ألم تسمعى عن نحات مصرى شاب يدعى منير عاصم ؟

وفكرت قليلا فتذكرت أنها قرأت ذلك الاسـم فى احدى المجلات مرة بمناسبة عرض أحد تماثيله وأحنت رأسها قائلة :

ـ أظن أننى قرأت هذا الاسم .

ـ الاستاذ منير عاصم هو أحد زبائنى وقد حدثنى عن حاجته الى شخص يساعده فى أعماله التى اتسعت • يضبط حساباته • ويرد على الرســائل التى يتلقاها • ويختار صور التماثيل التى تطلب المجلات بعضها للنشر •• أنه فى حاجة قصوى الى من يساعده فى هذا كله • لقد تلقى دعوة لعرض بعض تماثيله فى معرض بايطاليا منذ بضعة أشهر وحدثنى فى هذا الشأن واخترنا فعلا بعض هذه التماثيل • ولكنه ككل فنان نسى أن يرد على ذلك الطلب •• بل فقد خطاب الدعوة التى تلقاها ولم يعد يذكر موعدها •• بعض المطالبات التى يتلقاها عما يشتريه منى • أو من غيرى • وبعض العروض الخاصة بشراء بعض أعماله الخزفية الرائعة أجدها أحيانا ملقاة على مائدة فى المطبخ • أو تحت الفــراش فى غـــرفة النوم !•• أنا أعتقد أنك تصلحين جدا لذلك العمل •• ان الاستاذ منير شاب بدأ اســمه يثير الاهتمام فى الأوساط الفنية •• وهــو لايتردد فى آن يقــدر لك الأتعاب التى تليق بك •• اطمئنى ومرى على هنا باكر وأنا أقدمك له • فأنا على موعد معه للتحدث فى أمر فتاة ايطالية كان قد التقى بها عندى وعرض عليها أن تعمل نموذجا لتمثال جديد يعتزم نحته •

وعادت الى المنزل وهى فرحة غاية الفرح • ولكنها لم تصارح والدتها بشىء ••

وذهبت فى اليوم التالى مع مسيو ارسينيو الى مرسم الأستاذ منير عاصم النحات بشارع شمبليون •• وهو المرسم الذى اتخذ مدخلـه الواسع لكى يكون معرضا لتماثيله •• لم تكن تتوقع أن تجد الأستـاذ منير كما وجدته •• كان يخيل اليها من بعض الصور التى نشرتها الصحف له أنه قصير القامة أشعث الشعر •• كث اللحية •• ولكنها دهشت عندما لمحت شابا طويل القامة •• يخرج من خلف تمثال رخامى كبير لفلاحة مصرية تحمل « زلعة » وتقدم اليهما فى خطى متئدة بطيئـة وهو يفحصها بنظرة طويلة • ولما دنا منها حاول ارسينيو أن يقدمها اليه •• ولكنه لم يلتفت اليه ومد يده الى كتفها ثم أمسك بها وهزها هزة خفيفة وهو يقول

ــ لعل الأنسة لم يسبق لها أن وقفت أمام نحات أو رسام ؟

فأبتسمت كأنهـا تستغرب أن يوجه اليهـا هذا السؤال • لم تجب • ولكن الايطالى العجوز أسرع فقال

ــ ليست هذه هى « النموذج » الذى تحدثنا عنه •

انها آنسه من أسرة طيبة اعتقد أنها تصلح لمساعدتك في ادارة أعمالك .. سبق أن اتفقنا على أنك في حاجة الى من .. من ينظم حياتك .. حياتك البوهيمية .

وتلاشت الابتسامة من وجه منير .. الوجه الخمرى الذى كان يشع رجولة وقوة والتقت شفتاه الدقيقتان ولم يلبث أن دار حولها وهو يدقق النظر الى جسمها . فلما انتهى من دورته عاد فوضع يده على كتفها وهو يقول كأنه لم يستمع الى كلام الايطالى العجوز .

ـ انت واثقة من جمال جسمك ياعفت هـانم ـ فسألته

ـ لم ؟

ـ كل الفتيات اللاتى جئن هنا كن يدرن عندما ألقى عليهن نظـرة فاحصة كأنهن يخشـين عيبـا فى ظهورهن . أما أنت فقد وقفت ثابتة .

ـ لم أقصد

ـ أعرف انك لم تتكلفى . وأعرف أنك لا تدركين بعد أن لك « ظهرا » معبرا لم يقع بصرى من قبل على مثل هذا الظهر الصريح الناطق ..

ودهشت لتلك الملاحظة فأرسلت ضـحكة مرحة .. وتدخل مسيو أرسينيو اذ ذاك فقال للاستاذ سامي :

ـ ماذا تقصد ـ فأجابه وهـو يشير بأصبعه الى ظهرها

ـ أقصد أن أقول أن الآنسة لم يرق لها أن أسألها عما اذا كان قد سبق لها أن عملت كنموذج لنحات أو رسـام فادارت بعض ظهرها ٠ ويـل لمن تدير له هذه الآنسة كل ظهرها وهي غضبى ٠٠ !

٤

وبدأت عفت عملها مع الفنان منير عاصم

ذهبت مساء اليوم التالى في الموعد الذى حدده لها وهو الساعة الخامسة ولما فتح لها الخادم الصغير الباب تقدمت الى البهو الكبير الذى قامت التماثيل الحجـرية والرخامية فى انحائه وقد انعكس عليها ضوء الطريق البعيد فبدت كأنها توابيت فى معبد فرعونى فخم ٠٠ شعرت فى بادىء الأمر بشيء من الخوف ولكن بصرها لم يلبث أن تعود على الظلام ٠٠ لمحت ضوء أزرقا يبدو فى آخر البهو وقد انعكس على « مقعد طويل » استلقى عليه الأستاذ منير وفى يده كتاب يقرأه ٠٠

خطت نحوه . كان وقع خطاها مسموعا . ولكنه لم يلتفت اليها .. كان لايزال يقرأ .. ولما وقفت الى جانبه لم ترد أن تحييه خشية الا يرد تحيتها . ولما انتهى من قراءة الصفحة المفتوحة بين يديه وضع الكتاب خلف وسادة « المقعد الطويل » وتركها واقفة مكانها واختفى فى الظلام وبعد قليل عاد وفى يده ورقة كبيرة فتحها وهو يقول

ـ ما رأيك فى هذه الفكرة ياعفت ؟ ـ ودهشت لدى سماعه يناديها بأسمها مجردا . ولكنها لم تلبث أن رأته يقترب منها ويطوقها فى رقة بذراعه وهو يشير الى صورة مضطربة مرسومة بالقلم الرصاص على الورقة . فكرت فى أن تدفع ذراعه بعيدا عنها أو أن تبتعد عنه .. ولكنها لم تفعل . شعرت براحة فى أن تطيعه . نظرت بعينين نصف مغلقتين الى الصورة التى أمامها . كانت صورة راعية بدوية من رعاة الغنم تمسك فى يدها عصى ..وفى نظرتها مايشبه الاستغراق فى ... تفكير .. شارد . وسألته

ـ من هذه ؟ ـ فأجابها

ـ ... أنت ..

ـ أنا ؟

ـ أجـل ٠٠ انت ٠٠ هـذه فكرة التمثال الذى سأنحته ٠٠

وأعادت النظر الى الصورة ٠ كانت الراعية ترتدى ثوبا ممزقا كشف عن كتفيها وبعض صدرها فسألته

ـ سأبدو هكذا ؟

ـ أجل ٠٠ ثقى أنه سيكون تمثالا مدهشا ٠ أنت وحيه ٠٠

لمحت العنوان الذى اختاره لتمثاله الجديد مكتوبا على الورقة «أحلام الراعيـة» وتمتمت شـفتاها بالعنوان فكرره الأستاذ منير بعدها فى نشوة هائلة ٠ وبعد أن أضاء نور البهو الكبير أطال النظر اليها ٠٠ ثم أجلسها أمامه فى وضع معين ٠٠ ثم طلب منها أن تقف لتتخذ وضعا آخر ٠٠ وأخيرا اقترب منها وجذب ثوبها من فوق كتفيها ٠ وكشف بعض صدرها ٠٠ ثم بدأ فى الخطوط الاولى للتمثال ٠٠ وقد تهلل وجهه بالامل والفرح ٠٠

ودهشت عفت بعد أن غادرت المرسم عندما فتحت حقيبة يدها فقد وجدت فيها عشرين جنيها ٠

لقد وضعها الأستاذ منير دون أن تشعر بلا شك ٠

كانت تتوقع ــ طبعا ــ أن تتقاضى أجرا فى مقابل العمل معه ولكنها لم تدر لم خجلت عندما عثرت على هذا المبلغ فى حقيبتها ؟ كم كانت تتمنى أن تعين هذا الشاب دون أن تتقاضى أجرا . كانت تتمنى من صميم قلبها أن تراه عظيما ناجحا .. موفقا .. أصبحت تحس بأن مستقبلا باهرا ينتظره .. فلم لاتشترك بنصيب فى تحقيق ذلك ؟

ودخلت والدتها فى صباح اليوم التالى وقالت لها فى لهجة بدا عليها نوع من الشماتة :

ــ ماذا نفعل الآن ياعفت .. ان بضعة القروش التى بقيت لايمكن أن تلد ياابنتى .. وأنا لم أعد أقوى على أن أرفع بصرى فى عوض زوج أختى . ان الرجل المسكين لابد يسائل نفسه الآن عن هــذه النكبة التى نكبناه بها ــ فأسرعت عفت اذ ذاك وقدمت لها الجنيهات العشرين وهى تقول :

ــ أعط هذا المبلغ لخالتى رتيبة فقــد يعينها على التخفيف من أثر النكبة .. الى أن نتمكن من اعطائها غيره .. ان أمــلى فى الله عظيم أننــا لن نثقل عليهم طويلا .

وتناولت والدتها المبلغ منها ثم نظرت اليها نظرة طويلة وقالت فى صوت منخفض

ـ هل وجدت عملا ياعفت ؟ ـ فأجابتها

ـ أجل •• منذ أول أمس

ـ أين ؟

ـ عند الأستاذ منير عاصم

ـ ماذا يبيع ؟ ماعمله ؟

ـ نحات يبيع تماثيل ـ وظهرت عليها الدهشة ثم أسرعت تسألها

ـ شـــاب ؟

ـ أجل

ـ كم عمره تقريبا ؟

ـ أربعين •• حوالى الأربعين ••

ـ أعـــزب

ـ أظن

فتنهدت فى ألم وقالت لها :

ـ والله عشت ياعطية ورأيت ابنتك تعمل عند شاب أعزب لكى تعولك . أين أنت يا اسماعيل ! آين أنت لتـرى امـرأتك وما حكم به الزمن عليها ! آين أنت يا حبيبى ؟

ثم اختنق صوتها وتعثرت الكلمات فى حلقها .. ولكنها تمالكت حواسها واستمرت قائلة

ـ لو أنك استمعت الى نصيحتي وقبلت الزواج من الأستاذ حسنى أما كنت تصونين نفسك من هذا الهوان ياابنتي ؟

ـ لا أستطيع أن أتزوج رجلا وأن أشاركه الحياة . حياتى كلها . دون أن أحبه ..

ـ أكنت أحب أباك عندما تزوجته ؟ .. ومع ذلك فقد عشنا معا ثلاثين سنة فى أمان الله . ياليت أيامه دامت .. أو ياليت الله جعل عمرى أقصر من عمره .

وشعرت عفت اذ ذاك بأنها على وشك أن تذكر أمها بأن أباها « المرحوم » لم يخطبها كما اعتاد شبان أسرته أن يخطبوا زوجاتهم . ولم يلتق بها فى الوسط الذى ينتمى اليه . وانما رآها ذات ليلة صيف على خشـبة مسرح من مسارح الاسكندرية المتواضعة تغنى لترفه عن جمهور صاخب . ثمل ... كادت تصارح أمها بذلك

الماضى الذى تهامس عنه الجيران · ولم يتوقف هذا الهمس الا بفضلها هى · وبعد أن نضجت شخصيتها · فرضت على أهل الحى تقديرهم لها ·· وخشيت عفت أن تجرح أمها فأسرعت بمغادرة الغرفة

عبثا حاولت النـــوم ·· كلما أغمضت عينيهـــا استعادت ماحدث لها مع منير طوال اليوم ·· عينا منير تتبعانها ·· تطلان عليها فى ظلام الليل ···

لقد قبلها ·· أخيرا ·· نعم أخيرا قبلها · ·كانت تتوقع قبلته فى كل لحظة كان يدنو فيها منها ·· ولكنه كان يتحدث عن العمل · عن التمثال · عن الوضع الذى يجب أن تقف فيه ·· دون أن يقبلها كما كانت تتوقع· هل خطر له ذلك ثم تردد ؟ هل أحس بأنها كانت تتوقع ذلك فضن به ؟

أخذ شعورها بوجوب طاعته يزداد كل يوم عن اليوم الذى سبقه ·· ســاءلت نفســها ليلتئذ هل حقق منير الأحلام القديمة التي داعبت خيالها من قبل عن الرجل الأمثل ·· « رجلها » ؟

طلب منها أن تكشف ظهرها وصدرها لكى يتابع نحت تمثاله ·· لو أن رجلا آخر طلب منها ذلك لصفعته · ولكنه هو ·· هو يملك أن يطلب وعليها أن تطيع ·

وتتابع ماحدث فى بيت منير طوال اليوم فى ذاكرتها ...

ظلت جالسة بثوبها الممزق على منصة خشبية منخفضة وهو يقوم بعمله .. وقد تدلت سيجارة من شفته السفلى .. لم يعن مرة بأن ينفض جزءها المحترق . يداه تعملان فى الحجر الذى أمامه ... أحداهما تثبت « الأزميل » والأخرى تدق « القدوم » .. كانت تحس بنشوة وهو ينحت تمثالها من الحجر .. ملامحها فى ثوب الراعية تبدو خطوطها فلما انتهى ألقى بأدواته بعيدا ثم اطفأ النور الكبير وتقدم الى حيث جلست .

بقية السيجارة لا تزال متدلية من شفته وقد أضاء بصيصها ظلام البهو الكبير

كانت من قبل ترهب الظلام وتكرهه .. ولكن بصيص السيجارة الضئيل اذ ذاك كفى لكى يبعث الى صدرها الطمأنينة .. خيل اليها أن ذلك البصيص يحرسها ويحميها وسط تلك التماثيل العديدة القائمة دائما كأنها توابيت فى معبد فرعونى ..

وأحست بانفاسه الحارة تغمر وجهها . وسقطت السيجارة الى جانبها على الأرض فمد قدمه وداسها

ليطفئها ثم مد يده وأنهضها وأدنى وجهه من وجهها وأطال النظر الى عينيها ٠٠ كان الضوء الأزرق البعيد قد انعكس على وجهه المتصبب عرقا ٠٠ طالت نظرته ٠٠ وارتعشت شفتاه ٠٠

لم تقو على النظر اليه فأغمضت عينيها ٠٠ فجأة طوقها بذراعه والتقت الشفاه فى قبلة ٠٠

ولما ابتعد عنها تناول يدها بين يديه وضغط عليها ثم سألها برقة

ـ هل الراعية غضبانة ؟ ـ فأجابته

ـ كانت غضبانة ٠٠٠

ـ كيف ؟

ـ لانك أردت أن تكون غضبانة وأنت ترسمها ٠

ـ والآن ؟

ـ أسعد الفتيات

ـ لـم ؟

ـ كيف لاتعرف !

فعاد يقبلها ٠٠

عبثا حاولت النوم ليلتئذ

كيف فعلت ذلك ؟

كانت تتوقع ذلك . وتتمناه . فلما وقع .. ماذا انتابها ؟ خجلت ..

ليس هناك ما يدعوها الى قبول ذلك .. انه يدفع لها أجرا فى مقابل عمل تؤديه . فلم يقبلها ؟ لم ارتضت ذلك ؟

واعتزمت الا ترضيـــه مرة أخـــرى .. ودت لو استطاعت أن ترفض !

***

انتهى منير من عمله ذات يوم فدعاها لمرافقته فى نزهة بسيارته خارج القاهرة . ذهبا سويا الى المعادى ..

وتوغل منير بالسيارة فى الصحراء الممتدة خلف الضاحية الجميلة ثم طلب اليها أن تغادر السيارة ففعلت ووقفا متلاصقـــين يشخصان الى الأنوار البعيده التى تقاربت كحبات عقد . على صفحة ماء النيل .. وطوقها منير بذراعه ثم دفعها فتبعته .. كانت تحس بنفس الراحة العجيبة فى طاعته .. كانت نظراتهما تلتقى بين كل لحظة وأخرى . نظرات حيرى .. غامضة .. دون أن يفصح أحدهما للاخر عما يكنه ..

كانت تخشى ذاك من آن تكون مدفوعة لكى تحبه ومن أنها لن تستطيع الحيــاة بعيدا عنه ٠ كانت توقن بأن بقاءها الى جانبه لايضجره ٠٠ ولكنها لم تكن واثقة من أنه يحبها ٠ تحدثا قليلا عن تمثال «الراعية الغضبى» وعما ينتظر له من نجاح ثم عادا بالسيارة الى القاهرة فطلبت اليه أن يوصلها الى منزل خالتها بالسيدة زينب ولكنه قاد مسرعا الى منزله بشارع شمبليون ٠ ولم تكد تتبين ذلك حتى سألته فى دهشة

ـ لم فعلت ذلك يامنير ؟ ـ فأبتسم وربت على يدها فى رقة ثم قال

ـ لا شىء ٠٠ سأصارحك فيما بعد ٠٠

ـ لم لاتصارحنى الآن ؟

ـ أتخافين منى ؟ تعالى معى

ـ تأخرنا

ـ تعالى ٠٠

أطاعته فتبعته الى داخل المنزل ٠٠ قادها الى غرفة الطعام ٠ فتح أحد الدواليب وأخرج زجاجة سكب منها فى كأسين قدم لها احداهما وهو يقول :

ـ اشربى ياعفت ـ فدهشت وسألته

ـ ما هذا يا منير ؟

وعندئذ أدنى الزجاجة من عينيها وأشار بأصبعه الى ماكتب على زجاجة الخمر وهو يقول

ـ لا تسـألينى .. مادمت أشرب منه فأشربى . كيف تجمعنا معا حياة واحدة اذن ؟

وارتجفت لكلمة «تجمعنا» وتمتمت

ـ معا ؟

ـ ستعيشين معى . هنا . فى هذا البيت .. أشعر بأننى أصبحت لا أقوى على الحياة بعيدا عنك

وعادت تسأله

ـ كيف ؟

ـ كما يعيش الناس . تنتقلين من بيت خالتك الى بيتى ـ واستعرضت اذ ذاك توا أحـلامها القديمة عن «بيتى» المنشود .. وعن الرجل الذى سيحكمها ويحكم ذلك البيت ..

كان منير اذ ذاك قد شرب كأسه ومـلأ الثـانية . وأخذ يلتهمها بنظراته . نظرات أقل دعة وحنانا ..

ظنت فى بادىء الأمر آنه يقصــد الاشــارة الى الزواج ولكنها لم تلبث أن خاب ظنها عندما رآته يقترب منها وهو يقول :

ـ ماذا يدهشك فى أن تعيشى معى ؟

ارتعد جسمها وابتعدت عنه وهى تصيح

ـ ماذا تقول ؟ ـ فتبعها والكأس فى يده ·· وقد استعاد شيئا من رقته

ـ أقول ان البيت خال · وهو يفتح جميع أبوابه مرحبا بك · أنا كما ترين وحدى · فلم لاتعيشين معى ياحبيبتى ـ فابتسمت ابتسامة صفراء وقالت له وهى تزفر

ـ من تظننى · حتى تعرض على هذا العرض ؟

ـ أغضبت ؟

ـ كيف لاأغضب وأنا أستمع الى هــذا العــرض الجــارح ·· اننى من آسرة طيبة ·· محــافظة · أسرة كأسرتك ان لم تفضــلها · أياك أن تتــوهم آن أنسف مستقبلى بهــذه الســهولة لاننى أصبحت فى حاجة الى العمل معك

فقال لها وهو يتجاهل ماطلبه منها

ـ هل احتمل كلامى هذا المعنى ؟

ـ منذ متى تعيش فتـــاة تعتز بكرامتها مع رجـــل أعزب في بيت واحد دون زواج !

ـ ألسنا متحابين · اننى أحبك ياعفت

ـ تحبنى ؟

ـ ألا زلت تشكين ؟ لم يسبق لى أن شعرت نحو امرأة بما أشعر به نحوك

أرادت اذ ذاك أن تقول له «وماذا يمنعك عن أن تتزوجنى» ولكنها لم تستطع ·· لم تستطع قط وعـــز عليها أن ترغمها الظروف على التماس ذلك بنفسها · فاكتفت بأن نظرت طويلا الى عينيه اللتين كانتا تبرقان اذ ذاك وسط ظلام الغرفة الواسعة ·· لقد تبينت اذ ذاك أنها تحب ذلك الرجل ·· «رجلها» الذى طالما حلمت بالحياة الى جانبه ·· ولكنها فى الوقت نفسه أدركت أنه أحس بأنها تحبه فأراد أن يتسيطر ·· ويعبث · فلم تشعر الا وهى ترفع رأسها وتدير له ظهرها وهى تقول بعد أن استجمعت ماتبقى لها من قوة

ـ أنت مخطىء •• لست واحدة ممن اعتدت أن تتعامل معهن ••

ثم أسرعت الى الخـارج وهى تغالب دمـوعها •• انتظرت أن يعدو منير خلفها ولكنه لم يفعل بل ظـل ساكنا •• وسمعت وهى تعالج فتح الباب صوت كأس ترتطم بالمائدة فى قوة •• ولما وصلت الى الطريق فتحت النافذة •• وظهرت رأس منير وقد اضطرب شعره وأخذ يهتز اهتزازا ثملا وهو يصيح

ـ عفت •• أنت مجنونة •• تعـالى ياعفت •• عفت ••

كانت قد ابتعدت عن المنزل بضـع خطوات •• فتوقفت • خطر لها أن تعود •• ولكنها لمحت الشرطى المكلف بحراسة المنطقة يقترب منها •• بخطى متثاقلة •• ومرت سيارة تحمل بعض السكارى ومعهم امـرأة يغنون • ويصخبون •• كانت أشعة الفجر قد بدأت تتسلل الى ظـلام الطـريق • فخجلت وأسرعت الخطى مبتعدة ••

واسترسلت فى نوبة بكاء

عادت الى بيت خالتها واستقرت ٠٠ ولكن ٠٠ هل فقدته ؟٠٠ هل قدر عليها ألا ترى منيرا ٠٠ كانت تبكى كلما تخيلت أنها ستحرم من رؤيته ٠٠

ودهشت ذات يوم عندما شاهدت والدتها تدخل الى المنزل حاملة «ربطـــة» من الورق كتب عليها بحـــروف ضخمة اسم متجر من المتاجر الكبيرة ٠٠ فتحتها أمـــام ابنتها وأخرجت منها بضـــع قطـــع من القماش لم تكن الحاجة ماسة اليها ٠ فسألت عفت

ـ ماهذه الأشياء كلها ؟

وعندئذ أجابتها وهى تتظاهر بالضيق

ـ تعرفين أن أختى رتيبة وزوجها عوض قد غمرانا بفضلهما ٠ وجدت من واجبى أن أشترى لهما شيئا

ـ ولكن كيف اشتريت هذه الربطة كلها ؟

ـ كما يشترى الناس

ـ أقصد من أين جاء الثمن ؟ ألم تصارحينى منـــذ بضعة أيام أننا نعانى ضائقة شديدة ٠٠

ـ فرجها الله

ولاحظت عفت أن أمها اشترت لنفسها قطعة قماش أسود ونسيتها هى .. نسيت ابنتها .. ولكنها لم تشأ أن تصارحها بهذه الملاحظة وتركتها تغادر الغرفة وهى تغالب اضطرابها ..

من أين أحضرت أمها النقود ؟

ان هـذه «الربطـة» لاتساوى أقل من خمسين جنيها ..

من الذى يمكن أن يقرضها مثل هـذا المبلغ الآن ؟

ومر بخاطرها الاستاذ على حسنى محامى «المرحوم».

وثارت لهذه الفكرة . شعرت بما يشبه السخط على أمها .. ولكنها أرادت أن تتحقق من ذلك فارتدت ثيابها وغادرت المنزل مسرعة الى منزل الاستاذ حسنى بالمنيل وأخبرت خادمه بأنها ترغب فى مقابلة «الاستاذ» لأمر هام

جلست تنتظر . ولكن لم تكن تنقضى بضع ثوان حتى أقبل الاستاذ حسنى يهرول وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام .. جلس فى المقعد المواجه لها بعد أن حياها تحية حارة وهو يقول :

ــ أية خدمة ياعفت هانم ؟ ــ فأجابته فى هدوء

ــ أود أن أتحقق من موضوع

ــ تحت أمرك ٠٠ هل هو خاص بتركة المرحوم ؟

ــ لا ٠ هو خاص بى أنا شخصيا

ــ تفضلى

ــ تعدنى ألا تخفى عنى شيئا

ــ أعدك

ــ هـــل زارتك أمى أمس ٠ أو أول أمس ؟٠٠

فتردد ثم أجاب

ــ أجل ٠٠

ــ ماذا أعطيتها ؟ ــ فاضطرب الرجل وقال لها فى تلعثم ظاهر

ــ ولكن ٠٠

ــ لقد وعدت ألا تخفى شيئا عنى ٠٠ أدركت قبل أن أسمع منك أنها أخذت منك بعض المال ٠ ولكنى جئت أسألك «لم أعطيتها» ؟

ــ وماذا يضير فى هذا الوضع ؟ المرحـــوم والدك فضله على وعلى الناس كلهم ٠٠

ــ كم أعطيتها ؟ ــ فعاد يقول متلعثما

ـ وما ضرورة هذا الكلام الآن ؟

ـ يجب أن أعرف

ـ لقد صارحتني والدتك أنها في حاجة الى مئة جنيـه أعطيتها لهـا ـ فسـألته وهى تدنى وجهها من وجهه

ـ لم ؟

ـ انه أمر تافه لايستحق كل هـذا الاهتمام ؟ ـ فهزت رأسها ثم قالت له فى لهجة حاسمة

ـ ولكننى أعرف السبب الذى من أجله أعطيت أمى هذا المبلغ ؟

ـ ما السبب ؟

ـ أنا ٠٠ لانك لازلت تأمل فى أن أعدل عن رأيى ٠ أعطيت أمى ولازلت مستعدا أن تعطيها كلما طلبت منك ٠٠ ولكننى جئت أطلب منك ألا تعطيها شيئا

ـ ولم ياعفت هانم ؟

ـ لاننى لن أعدل عن رأيى ٠

ولاحظت اذ ذاك أن وجهـه قد امتقـع وارتعشت شفتاه ٠ وعندئذ تابعت كلامها قائلة :

ـ أعرف أن الناس أجمعين سيعدوننى مجنونة اذ أرفض الزواج من رجل مثلك • تتمناك الكثيرات غيرى ممن هن أفضل منى • ولكننى مع ذلك لن أرضى • لا لأن فيك مايعيب • فاننى آدرك أنك تمتاز بخلق كـريم • وشخصية ممتازة • وقد حاولت كثيرا أن أقنع نفسى بأننى مخطئة لكى أقبل هذا الهناء المعروض على • إلا أننى لم أوفق • تبينت • ماذا؟ تبينت أنك لست الرجل الذى كنت أحلم منذ طفولتى بأن يكون زوج المستقبل • فلا تتعب نفسك •

ولم تــكد تتم كلامهــا حتى نهضت وتقــدمت الى الباب • فوقف الاستاذ حسنى ومد يده فى حركة آلية كأنه يريد أن يستوقفها ولكنها كانت قد أخذت تهبط الدرج واتجهت الى البــاب الخــارجى دون أن تلتفت خلفها ••

ولما وجدت نفسها فى الطريق لم تدر أين تذهب • اشــتد شعور سخطها على مافعلته أمها فلم تطق العودة الى منزل خالتها بالســيدة زينب • لم تشــعر إلا وهى تسير مسرعة الى شارع قصر العينى •• ثم الى ميدان التحرير •• فمنزل منير ••

ولما فتح لها الخادم النوبى الصغير الباب اندفعت الى الداخل كأن شيئا لم يحدث من قبل

كان منير واقفـا اذ ذاك يعمل فى أحـد تماثيله وقد تصبب العرق على جبينه وتهدلت خصلة من شعره الاسود اللامـع على عينه اليسرى فلم يعبـأ بردها الى مكانها ·· ورماد السيجارة الملتصقة بشفته السـفلى يهتز وفق دقات «الازميل» المتتالية دون أن يتناثر ·· كان كما تركته ·· والتفت اليها عندما سمع صـوت خطواتها تقترب منه ·· وفى حركة بطيئة هادئة ألقى بالازميل الى الأرض ونزع السيجارة من فمه ثم نفض رمادها وهز رأسه قائلا :

ـ أهلا بالعائدة !؟ ـ فأجابته وهى تطرق الى الأرض خجلا

ـ ألم يخطر لك أننى سأعود ؟ ـ فأرسل ضـحكة قصيرة واقترب منها وهو يقول

ـ لا أخفى عنك أننى فكرت فيك اليوم وتوقعت مجيئك

وأمسك بذراعها · ضغط عليها بأصابعه الطويلة التى أخذت تتقلص فى حركات متشنجة وأطال النظر الى عينيها وهو يقول لها

ـ لقد هربت منى ليلتئذ

وفهمت اذ ذاك أنه يريد أن يقول انها هربت ليلة عرض عليها أن تعيش معه ولكنها مع ذلك قد عـادت راضية . أو صاغرة .. خطر لها أن تثور ولكنها سمعت صرير أسنانه وأحست ببرودة أنامله التى كانت تتشبث بذراعهـا .. لاحظت ارتعـاش شـفتيه فأدركت أنه مضطرب .. مضطرب فرحا بعودتها ..

تظاهر منير بأنه كان يتوقع عودتها ولكنها تبينت غير ذلك .. تبينت أنه فوجىء بعودتها وأنه سعيد بتلك العودة .. سادت فترة صمت لم يكن يسمع فيها وسط البهو الكبير الذى انتصبت فيه تماثيله الكاملة والتى لم تكمل بعد الا الآهات الحارة التى كانت تصـدر عن صدرين متهدجين . وبعد قليل رفع يديه عن ذراعيها ومدهما فى رشاقة الى معطفها فأزاحه عن كتفيها وقال لها :

ـ هيا ادخلى لترى البيت ياعفت .. بيتك . هنت عليك .!

وتقدمت الى داخل المنزل كأنها زوجة ..! رأت طبقة من الرماد تعلو المكتب الذى وضع عليه منير كتبه

وأوراقه مبعثرة مضطربة فتلفتت حولها تبحث عن «ريشة» فلم تعثر وعندئذ همست كأن شيئا لم يحدث بينهما :

ـ ماهذه القذارة يامنير ·· كيف تستطيع أن تعيش فيها !؟ بدأت أشفق عليك ··

وأسرعت بتناول خرقة أزالت بها الرماد المتراكم على الكتب وفتحت نوافذ الغرفة · لم تشعر بخجل من أن تطل من النافذة على الطريق كأنها «سيدة بيت» لا حرج من أن يراها المارة فى احدى نوافذه ··

٥

ـ أين أنا ؟

ـ فى بيتك

ـ «بيتى» ؟

ـ أجل · بيتك ياعفت ·· ألا زلت تشكين ؟

ـ صحيح ؟

ـ البيت بيتك · وأنت سيدته

كان هذا أول حديث دار بينها وبين منير عندما استيقظت فى الصباح على صوت باعة الصحف ينادون تحت نوافذ بيت منير بشارع شمبليون ، وتلفتت حولها فوجدت أنها فى غرفة لم تكن تعهدها من قبل . وفى جو غريب امتلأ بسحب الدخان الذى تصاعد من سيجارة منير وقد وقف بثوبه المنزلى على باب غرفته ينتظر يقظتها من النوم .. ولما انتهيا من ذلك الحوار القصير خطا منير نحو الغرفة التى أعدها لها وحملها حملا على ساعديه ثم وضعها على «المقعد الطويل» فى البهو الذى عرض به تماثيله وجلس الى جانبها ثم قال وهو يطيل النظر الى عينيها فى حنان

ـ عفت ...

ـ هيه ...

ـ لم أشعر أننى بدأت أعيش الا اليوم

ـ لم ...

ـ ألا تعرفين لم ؟

ـ لا ...

ـ كانت حياتى جافة قبل أن تعودى الى البيت . كنت أستيقظ من النوم مبكرا لاشتغل طول النهار

فلا أسمع الا صوت القدوم والأزميل على الحجر ·· كنت أشتغل لغيرى ·· لناس لا أعرفهم ولا أحبهم ·· للجمهور الذى يشترى التماثيل من غير أن يقدركم تعبت فيها

ـ والآن ؟

ـ والآن أشعر أننى أعمل لك ·· لك أنت وحدك، ليس لى غيرك فى الدنيا ·· الآن ياعفت يجب أن أنجح ·· سترين ياعفت أن منيرا سينجح لكى لايدع أحدا يشمت فيك ·· لست غبيا · فأنا أدرك مدى التضحية التى بذلتها من أجلى ··

ـ أتدرك حقا ؟

ـ لاتعذبينى ياعفت ··

ـ أعذبك ··؟ مجنون ··

ومد ذراعه اذ ذاك فطوقها به · ولما تخلصت من عناقه قالت له

ـ ألا يحسن أن تفطر الآن ؟ ـ فأغلق عينه اليسرى ليسألها متخابثا وهو ينظر من بعيد الى باب غرفة الطعام المفتوح ··

ـ من سيعد افطارى ؟

ـ أنا ..

ـ أنت ؟

ـ أتخرج من «بيتي» بلا افطار ! ـ وضحكا عاليا ثم تقدمت الى «النملية» الموضوعة في غرفة الطعام فأخرجت منها مايكفي لافطارهما . ولما وضعته على المائدة صفرت لتدعوه

وللمرة الأولى في حياتها جلست تجاه رجل غريب على مائدة واحدة في بيت ساكن ليس فيه الا هي و .. هو ..

وتوالت الأيام ..

كاد اهتمام منير بها يعزيها عن ألم الحرمان الذى عانته بعد وفاة «المرحوم» أبيها . كما أن انهماكها فى عملها عنده قد أنساها الضياع الذى كانت تحس بأنها مقبلة عليه .

اعتادت أن تخرج من بيت خالتها رتيبة فى السيدة زينب مبكرة في الصباح . ولا تعود الا فى ساعة متأخرة من الليل .. حجتها دائما كثرة العمل .. وتلقى دروس ليلية فى اللغة الايطالية ثم استعدادا للتقدم الى امتحان مسابقة للحصول على منحة لدراسة فن الرسم فى ايطاليا.

أما الليــالى التى قضــتها خارج البيت فكانت تبررها بالسفر الى الاسكندرية مع صــديقة طفولتها احسان صابر لحضور بعض المعارض الفنية ..

كان المرض قد اشــتد على خالتها رتيبة .. فلما أحست بدنو أجلها طلبت من زوجها عوض ومن أختها عطية أن ينقلاها الى الاسكندرية . مسقط رأسها .. وقد أجابا طلبها .. وظلا الى جانبها حتى لفظت الروح فدفناها ـ كما أوصت ـ فى مقبرة أسرتها .. ولم تعلم عفت بوفاة خالتها الا من نعى موجز نشر فى مكان منزو بصفحة الوفيات من احدى الصحف . أشير فيه الى وفاة «حرم السيد عوض الشبراخيتى وشقيقة حرم المرحوم اسماعيل سعيد من أعيان القاهرة ..وقد شيعت الجنازة بالاسكندرية .. ولا عزاء للسيدات» .

ولما سافرت عفت الى الاسكندرية بعد دفن خالتها تلقت مع أمها وعــوض زوج خالتها التعزية من بعض الطاعنين فى السن من أقارب أمها الذين لم تكن قد التقت بهم من قبل . ومن بعض زميلات خالتها السابقات من الممرضات ومن زوجات زملاء عوض من الكتبة السابقين فى ميناء الاسكندرية ..

ولم تجـد عفت مايدعــو الى بقــائها بعــد أول «خميس» تال لوفاة خالتها · فعادت الى القاهرة ·

ساءلت نفسها مرارا في تلك الأيام عن مصير أمها؟ ولكنها لم تهتد الى جواب ·· أمر واحد كان يطمئنها ·· ذلك أنها علمت من عوض زوج خالتها أن الاستاذ حسنى قد استطاع عقد تسوية مع البنك الدائن المرتهن لأملاك أبيها بعد أن ارتفعت أثمان الأراضى الزراعية في منية الشرفا بمركز الصف · فاستأثر البنك بعشرين فدانا وبقي للورثة بيت «العزبة» وحـديقة تحيطه سـبعة أفدنة ·

وفي ليلة عيد ميلاد المسيح من ذلك العام قضت مع منير ليلة هائلة ···

لم تكن تظن أن القاهرة تحتوى على كل هذه الألوان الصارخة البراقة · لقد تنقلا بين بضعة مطاعم ومـلاه وحانات · ورقصت مع منير فى كل ملهى ··

للمرة الأولى فى حياتها سـهرت حتى الفجـر الى جانب رجل يطلب فى كل مكان كأسا أو كأسين من تلك المشروبات التى لم تكن تعرف من قبل الا اسمها منشورا فى الصحف أو متداولا على ألسنة أقاربها ·

مرات عديدة رددت لزميلاتها فى المدرسة وهى بعد طفلة «كيف تسمح الزوجة لزوجها بالدخول الى بيتها وهو يترنح ثملا ، عندما أتزوج سوف أتركه ينام على العتبة خارج البيت اذا عاد الى البيت ثملا» !

ولكنها يومئذ عادت الى البيت مع منير بعد أن أشرق الصباح · كان هو ثملا لم يقو على خلع ثيابه · وكانت هى مرهقة من فرط السهر · والرقص فى كل مكان ··

واحتفلا ذات ليلة بانتهاء العمل فى تمثال «أحلام» الراعية ·· اقترحت عفت عليه أن يدعـو اليها بعض أصدقائه الفنانين فقال لها :

ــ لم أدعو الناس ؟ مادمت الى جانبى فالدنيا تحت قدمى · هيا ارتدى ثيابك ياعفت لنخرج ··

فسألته

ــ الى أين ؟

ــ لاتسألى · أسرعى بارتداء ثيابك ··

ــ ألا أعرف الى أين نذهب ؟

ــ أنا نفسى لا أعرف بعد

ودهشت ولكنها أطاعتــه فارتدت ثيابهــا بسرعة وكان هو قد نزل وجلس فى سيارته ثم أخذ يصيح فى الشارع بأعلى صوته كمجنون

ـ عفت ٠٠ ياعفت ! ماذا جرى ؟ لم تأخرت ؟ ـ فقفزت درجات السلم وهى خجلى خشية أن يكون أحد من الجيران أو المارة قد سمعه وهــو يناديها باســمها كزوج ٠٠ أرادت أن تنبهه الى ذلك ولكنها ترددت ثم عدلت ٠٠

وانطلقت السيارة الى المعــادى ٠٠ الى الصــحراء الواسعة المنبسطة ٠٠ الى نفس المكان الذى تبادلا فيه أول حديث غرامى ٠٠ كانت أنوار الشــاطىء لاتزال تتلألأ على صفحة الماء كحبات عقد على جيد عروس ليلة زفافها ٠٠

وعادا الى القاهرة ٠٠ تنقلا بين ملاهيها ومراقصها حتى انتصف الليل فرجعا الى البيت ٠

واستقرت حياة منير ٠ أصبح مادة مثيرة للأبواب الفنية فى المجــلات والصحف ٠ توالى نشر صــوره ٠ واجراء الأحاديث معه ٠ وعمل التحقيقات الصحفية عنــه ٠ وتتبع أخباره ٠ غزر انتاجه ٠ كما تضاعفت أرباحه ٠

توفر على انتاجه الفنى وترك كل ماعدا ذلك لعفت
•• أغراه نجاح «أحلام الراعية» على أن ينحت تمثـالا
أطلق عليه اسم «حلم المعمورة» يمثل فتاة مستلقية على
الشاطىء وفى نظرتها ترقب لقادم عزيز • وتمثـالا
ثالثا أسماه «حلم بائعة اللبن» يمثل فلاحة تحلب اللبن
من دابتها • وهى تتوقع الرزق الوفير •

ونجحت أعمال منير الفنية • قابلها النقاد بالتقدير
والثناء وطبع لها مجموعة من الصور والنماذج باع منها
كميات كبيرة فى مناسبات مختلفة حتى أصبح يطلق عليه
اسم «بائع الأحلام» •

اقترحت عليه أن ينشىء قسما خاصا لصنع أدوات
المائدة الخزفية من طينة معينه كانت عفت تتعاقد على
استحضارها من أسوان

أصبح يعمل منذ الصباح الباكر الى ساعة متأخرة
من الليل •• وقد أعانتـه عفت على ذلك لأنهـا تولت
ما كان يشغله من مهـام أخرى •• الرد على الأحاديث
التليفونية • والرسـائل • مقـابلة الزوار • تنظيم
الحسابات • فاذا انجزت عملا من هذه الأعمال أقبلت
لتتبادل معه الرأى فى موضوع معرض فنى تعرض فيه
بعض تماثيلة ، أو عقد صفقة لبيع مجموعة من انتاجه

الخزفي ، أو تحديد موعد لالقـــاء محاضرة عامة عن أسلوبه الجديد لتطوير الفنون التشكيلية ٠٠ أصبحت عفت ـ الى جانبه ـ ملهمة ٠ ومديرة أعمال ٠ ومنقذة من حيـــاة الضـيـاع والتشرد التى كان يعيشـها من قبل ٠

كانت مزهوة بذلك التمثال الرائع الذى كانت هى وحيه والهامه ٠٠ والذى أثار عاصفة من التقدير والاعجاب ٠

كانت عفت تؤمن بأن منيرا عبقرى موهوب ٠٠

والتقت ٠٠ ذات يوم ٠٠ بعــد وفاة خالتها رتيبة بصديقتها احسان صـــابر ٠٠ كان اليـوم يوافق يوم الأربعين لوفاة خالتها ٠ فخجلت من أن تراها صديقتها مرتدية ثوبا زاهى اللون قبل انقضاء أربعين يوما على وفاة خالتها ٠ حاولت أن تلتمس عـذرا وهى تتظاهر بالحزن لوفاة خالتها ٠ ولكن احسان ضغطت على يدها ضغطة خفيفة وهي تقول في صوت هامس

ــ هناك من هو أولى بالحزن منك ؟ ـ فسألتها

ــ ماذا تقصدين ؟

ــ من أولى بالحزن ٠ أنت أو «تيزه» عطية هانم ؟

ـ لم ٠٠ ألم تحزن أمى لوفاة أختها ؟

ـ لا أدرى ٠ ولكن كلام الناس كثير

ـ ماذا يقولون ؟

ـ يقولون أن عوض أفندى زوج المرحومة خالتك سيتزوج تيزه عطية ـ فشهقت عفت شهقة حادة

ـ أمى ستتزوج زوج خالتى !

ولاحظت أن صديقتها القديمة احسان كانت تتلفت اذ ذاك حولها كأنها كانت تخشى أن يراها أحد وهى تتحدث اليها ثم انصرفت مسرعة ٠٠ ماذا حدث ؟ هل أصبحت كالجرباء ٠٠ يتحاشى الناس الاقتراب منها !

وحل اليوم الذى كان محددا لعرض تمثال «أحلام الراعية» ٠٠ كان يوما هائلا ٠٠ فقد ازدحم المكان الذى عرض فيه منير تمثاله بالجمهور الذى أقبل لمشاهدة الأعمال الفنية التى عرضها النحاتون والرسامون الشبان ولقد أثار تمثال منير اهتماما خاصا بين ذلك الجمهور ٠ وبينما كانت تجوب أنحاء المعرض سمعت صوتا يناديها

ـ ماذا أتى بك هنا ياعفت هانم ؟ ـ فلما التفتت

رأت الاستاذ على حسنى متجها اليها وقد امتقع وجهه ٠ وترددت عفت ٠ ثم تمتمت

ـ ألم تر التمثال ؟ ـ وعندئذ أطرق الى الأرض ثم دق بعصاه على طرف حذائه دقات متقطعة وقال فى صوت مرتجف دون أن يرفع رأسه

ـ وتطلبين من الناس أن يشاهدوه ! ـ فأحست بألمه وتبينت أنها بالغت فى توهم بساطة ما أقدمت عليه ٠ ولكنها مع ذلك استجمعت قواها وقالت له

ـ ماذا فعلت ؟

ـ أيرضيك أن يعرض تمثالك أمام أبصار الناس بهذه الصورة ٠ أنسيت ابنة من أنت ؟

فتأثرت لكلماته وأطرقت الى الأرض وكأنه لحظ ذلك فقال فى لهجة حنون ٠

ـ أخشى أن أكون قد أغضبتك ٠٠ لعلك تعـرفين أننى مهتم بأمرك منذ زمن طويل وأحب أن أسمع عنك كل خير ـ ثم اقترب منها وسألها فى صوت مرتجف

ـ أين كنت ؟ ـ فـلم تـدر كيف تجيبـه وقالت متلعثمة

ـ فى الدنيا ! ـ فضحك ضحكة صفراء وقال

ـ حاولت أن أطمئن عنك فلم أوفق ·· أخبرتنى عطية هانم أنك ·· أنك التحقت بعمل ما ·

ـ أنا عند الاستاذ منير من ثلاثة أشهر ·

ـ عنده أين ؟ ـ فلم تجد بدا اذ ذاك من أن تقول وهى تدير وجهها خجلا

ـ عنده فى المرسم ··

ـ حرام عليك أن تسيئى الى نفسك هذه الاساءة ·· انك لم تخلقى لهذا الهوان ·· كلما فكرت فى أمـــرك أظلمت الدنيا فى بصرى ·· أؤكد لك أنك لن تستطيعى الاستمرار فى هذا النمط من الحياة ·

كان اذ ذاك قد أمسك بيدها وضـــغط عليها وقـــد بان التأثر الشديد فى نظراته وتقلصات وجهه · وحانت منها التفاتة الى منير فرأته ينظر اليها كأنه يتساءل عمن يكون هذا الرجل الذى تطيل الحديث معه ·· عنـــدئذ أسرعت فتخلصت من الاستاذ حسنى وغادرت المعرض

ولما عاد منير الى البيت ظهرا ابتدرها قائلا :

ـ من الذى كان واقفا يتحدث اليك فى المعرض ؟

فأجابته وهى تتكلف ابتسامة ..

ــ الاستاذ على حسنى محامى المرحوم أبى ..

ــ ماذا كان يريد منك ؟

ــ لاشيء .. كان يطمئن على ..

ــ فقط ؟..

ــ ماذا تظن أنه كان يريد مني ــ وعندئذ اقترب منها وأمسك بكتفها وهو يقول :

ــ اذن فلاشيء بين هذا الرجل وبينك ؟ ــ فذعرت . وقالت :

ــ شيء .. أى شيء يامنير ؟ أنت مجنون ــ فدفعها بقسوة الى الحائط وهو يصيح

ــ مجنون الذى يصدق امرأة مثلك .. ألا تستحين من التمسك بيد الرجل فى المعرض . والتحدث اليه فى همس . تلتصقين به حتى تكادين تعانقينه أمام الناس أجمعين

فصرخت باكية ..

ــ لاتقل هذا الكلام ..

ـ اخرسى ! ـ ثم رفع يده وهوى بها على صدغها يصفعها

لم تقو الا على أن تهمس فى حشرجة باكية

ـ منير ! ـ فأدار لها ظهره وهو لايزال يصرخ

ـ لست الرجل الذى يمكن أن تسخر منه مثلك ٠٠ سترين ماذا سوف أفعل ؟

ثم تركها ودخل الى غرفته ٠٠ بعد أن صفق بابها بعنف ٠٠

ـ ٦ ـ

انقضت أربعـة أيام لم تتبادل فيهـا عفت ومنير حديثا ٠ أى حديث ٠ لم يتناولا وجبة واحدة من وجبات الطعام معا ٠ كان منير يغادر البيت فى الصباح قبل أن تصحو عفت من النوم ٠ فاذا لقيها مصادفة لم يعن حتى بتحيتها ٠ ولا يعود الا فى ساعة متأخرة من الليل ٠٠٠ ثمـلا ٠ يترنح ٠ ويصـطدم بقطع الأثاث ٠ بأدوات النحت ٠ بالأبواب ٠٠ خطر لها أكثر من مرة أن تسأله

عما اذا كان في حاجة اليها · ولكنها لم تجرؤ لئلا تثيره ·· كما أنها لم تعد تستطيع أن تنعم بنوم هادىء ·· كانت تنتظر يقظة حتى تحس بعودته · فاذا عاد نامت نوما متقطعا خشية أن يقتحم غرفتها و ·· ويعتدى عليها ·· وحشة كئيبة أصبحت تخيم على البيت ·· «بيتها» الذى كانت تحلم بسعادة الحياة فيه مع «رجلها» · الرجل الذى تحبه ·· بدأت عفت تتبين حقيقة الحياة الجديدة التى تعيشها ·· أحبت هذا الرجل وأعانته على النجاح فى عمله ··

ونال التمثال الذى كانت وحيه أكبر فوز صادفه فى حياته · ولكنها مع ذلك أخذت تحس بالصلة التى كانت تربطها به تبلى وتتقطع ··

ذات يوم أخـذت تتصفح بعض الكتب التى على مكتبه فاستوقف نظرها سطر من سطور كتاب خط منير تحته خطا أحمرا «ان فى صدر كل امرأة يكمن طاغية وعبد» !

أعادت قراءة هذه الكلمات التى اهتم بهـا منير ووضع تحتها ذلك الخط الأحمر · تساءلت وهى تنظـر الى المرآة وتتحسس صدغها الذى تلقى صفعة منير ·

أحقا ، أن في صدر كل امرأة .... في صدرها طاغية وعبدا ؟!

هل لفتت هذه العبارة نظر منير لانه يشك في صحة معناها ؟

أم لانه يوافق عليها ؟ هل كان يعلم من أول الأمر أن في صدرها ـ ككل امرأة أخرى ـ طاغية وعبدا ؟ هل يتوقع منها بعد أن صفعها أن ينزوى العبد ويثور الطاغية ؟

لقد أحبت منيرا الى حد أنها كانت أطوع اليه من نفسه .. كانت تشعر براحة وهى تتفانى فى طاعته ولكنها ... ماذا ؟ شيء قد تغير في صدرها .. فى شعورها نحوه ... لم تعد عفت التى أحبته وهجرت كل شيء من أجله ... انقطعت صلتها بالناس أجمعين بل بأمها . ماتت خالتها دون أن تعرف الا من الصحف . وعلم الناس باعتزام أمها الزواج من زوج خالتها قبل أن تعلم هى ... أن الرجل الذى تعيش معه فى بيت واحد لوث ماضيها كله .. وساءلت نفسها كيف اجترأت على أن تفعل كل هذا !

طالت ليالى الارق . اشتدت كآبة الوحشة . وقسوة الضياع .. خيل اليها أن جو البيت ملوث يخنق أنفاسها

•• لم تعد تستطيع أن تخـدع نفسـها •• أيمكن أن تلتمس المعاذير لفتاة من أسرة طيبة تقـدم فى جـرأة على ما أقدمت هى عليه ؟! وأحست عفت برغبة خفية فى آن تعيد قراءة نفس العبارة • «فى صدر كل امرأة طاغية وعبد •••» فلما أعادت قراءتها استراحت قليلا •• أسرعت تفتح نوافذ البيت وتستنشق هـواء نقيا •• هواء العالم • خارج البيت • ولما ملأت رئتيها بذلك الهواء خف شعورها بالاختناق • وابتهلت الى الله أن يسمع توبتها • وأن يعينها •• أن يعينها على آن تثبت لمنير بأنها تستطيع أن تكون عظيمة فى كرهه كما كانت عظيمة فى حبه ••

كرهه ••

هل كرهته ؟ ساءلت نفسها آلاف المـرات دون أن تهتدى الى جواب ••

ليلتئذ عاد منير الى البيت ثملا فاقتحم غرفتها وأخذ يطلعها على بعض صحف نشرت صـورا مختلفة لتمثال «الراعية الغضبى» وأشارت فى عناوينها بحروف ضخمة الى نجاح التمثال •

كان يترنح • وهويقول لها

ــ أترين ؟ أترين ماذا تقول الصحف عني وعنك ؟

ــ فقالت له وقد أحست برغبة خفية فى أن تفصل بينها وبينه

ــ عنى أنا ! لم تتعرض هذه الصحف لى ؟ أنت الذى نحت التمثال ــ فنظر اليها طويلا وجلس على أحد المقاعد مجهدا ثم قال لها متحديا

ــ لا جدوى من المقاومة ·· عرف الناس جميعا أنك «معى» ··· أيخطر لك أنك مستطيعة يوما أن تغادرى هذا المكان ؟ عفت ·· اننى أحبك · وسوف تبقين هنـا أرءت أو كرهت مادمت أريدك ·· ستبقين الى أن أموت ·· لا ·· لا ·· أنت التى ستموتين قبلى ·· سامعة ؟ ــ التوت الكلمات فى فمـه · تعـذر عليه النطق وهم بالوقوف فسقط اعياء على مقعده وهو لايزال يزمجر ــ يجب أن تموتى قبلى لاننى لايمكن أن أراك زوجة رجل آخر ــ واستجمع قواه فجأة ثم هب واقفا · تقدم اليها
آخر ــ واستجمع قواه فجأة ثم هب واقفا · وتقدم اليها
محاولا أن يقبلها ولكنها دفعته فلوى ذراعها واغتصب قبلة ·· رائحة الخمر تفوح من فمه كريهة · خانقـة · وكانت شفتاه باردتان · وعيناه جاحظتان · أصـابعه تتقلص متشنجة وهى تقبض على ذراعها فاشمأزت ··

كادت تنكر أنها أحبت هذا الرجل •• فتخلصت منه •• ثم جرت الى خارج البيت بعد أن صفقت الباب بعنف ••

لم تدر في بادىء الأمر الى أين تقصد •• خطر لها أن تذهب لزيارة صديقتها احسان صابر • وتناست لقاءها الأخير باحسان عندما بدا عليها أنها تخشى أن يراها الناس تتحدث اليها بعد أن ذاع خبر صلتها بمنير ••• خطر لها أن ترى أمها • أحست بحنين اليها بعد أن طالت غيبتها عنها • وحرمانها منها •• وخطر لها الاستاذ على حسنى •• ترددت •• واحتارت •• لم تدر في الواقع الى أين تقصد •• ولكنها أحست بحاجة ماسة الى رؤية صديقة طفولتها والتحدث اليها •• انها تذكرها بفترة عزيزة من فترات حياتها •• فترة بريئة • طاهرة •

وبينما كانت تسرع الخطى فى ميدان طلعت حرب التقت بالاستاذ على حسنى يهبط من سيارته ويتقدم الى احدى الصيدليات • كانت تتمنى أن تلقاه مصادفة دون أن تسعى اليه • وقد تحققت أمنيتها • فلم يكد بصره يقع عليها حتى أقبل عليها وهو يقول :

ـ فرصة سعيدة •• الى أين ؟

ـ لا أدرى

ـ كيف ؟

ـ أسير على غير هدى . لا أخفى عنك أننى أختنق ضيقا

ـ مم ؟

ـ لاشىء ... ـ وكانت قد أحست أنها تسرعت بالكشف عن همومها . وآلامها . فهمت بأن تنصرف . ولكنه أمسك بذراعها وجذبها الى باب الصيدلية وهو يقول :

ـ الى متى ستتابعين هذه الحياة الطائشة . سبق أن صارحتك أنك لم تخلقى لهذا الهوان . انك جديرة بحياة كريمة . أكرم حياة يمكن أن تحلم بها أسعد فتاة .

فرفعت بصرها اليه .. كانت عيناه العميقتان تشعان كمادتهما بذلك البريق الذى ينم عن الطيبة والحنان . وكانت شفتاه ترتجفان وهو يتحدث اليها . أنصتت حتى انتهى ثم همست .

ـ شكرا .. انما ..

ـ لم هذه الحيرة ؟ ـ فأجابت فى همس مرتجف

ـ لا أستحق منك هذا العطف

ـ كيف ؟ أنت تستحقين أكثر منه •• ـ فانتزعت يدها من يده وأسرعت بالابتعاد وهى تكرر

ـ لا •• لا •• لا أستحق

ولما رآها تبتعد عاد الى سيارته دون أن يدخل الصيدلية كأنه نسى ما أقبل لشرائه ••

وأسرعت الخطى •• الى ميدان التحرير •• كان قد استقر عزمها على أن تذهب الى احسان • أن تفتح لها قلبها • وتفضى بكل همومها •• وقفت عند محطة السيارات المتجهة الى الجيزة حيث تسكن أسرة احسان • ولكنها فوجئت بيد قوية تقبض على كتفها • فلما التفتت رأت منيرا •• كان يدفعها دفعا الى سيارته • حاولت أن تصرخ • ولكن الصراخ احتبس فى حلقها • لم تدر لم •• أخوفا من منير • أو من الفضيحة أمام الجمهور المجتمع فى الميدان لانتظار مختلف السيارات ؟

ولما وصلت الى باب السيارة حاولت عبثا أن تفلت منه ولكنه تغلب عليها فألقاها داخل السيارة • كان يبدو جليا أنه لايزال سكرانا •

ولما تحركت السيارة قال لها وهو يحاول أن يكظم غيظه

ـ كنت على موعد معه !

فلما لم تجب · تعالى صراخه

ـ كنت على موعد · ولذلك افتعلت مشاجرة الليلة وتركت البيت للقائه ؟ انطقى ! ـ وكان اذ ذاك قد اتجه اليها ورفع يديه عن قيادة السيارة وأمسك بكتفيها وهو لايزال يصرخ ـ انطقى ! ـ وكادت السيارة تصطدم بالسيارات القادمة من الاتجاه المضاد · وبالمارة · ففزعت عفت وقالت :

ـ أبدا · قابلته مصادفة

ـ كذابة ! كنت أعلم أنك على موعد ولذا تبعتك · ولكن لم هذا اللقاء ؟ لا أظنه للاطمئنان على صحتك !

ـ لاأدرى ··

ـ ستدرين الآن ··

ـ لاشأن لك بى ·· ماذا لك عندى ؟

ـ هل حرضك هذا العجوز الغبى على أن تتحدثى الى بهذا الاسلوب ؟

ـ اياك أن تمس هذا الرجل بكلمة سوء ••

ـ سمعا وطاعة •• مادمت تحبينه !

ـ قلت لك انى قابلته صدفة فى الطريق

ـ أية صدفة •• صدفة فى المعرض وصدفة فى الطريق •• لعلك انتهيت الى الاعتقاد بأننى مغفل !

ولما وصلا الى باب البيت طلب اليها النزول •• كان يبدو جليا أنه يريد الاعتداء عليها كما اعتدى من قبل • وقد فكرت فى أن تقفز من السيارة •• وتستنجد بالمارة • ولكن العبارة التى سبق أن قرأتها وقد خط تحتها خط أحمر •• «فى صدر المرأة طاغية وعبد ••» دقت ذاكرتها • طرقت ذاكرتها طرقا عنيفا • فلم تعارض فى الصعود معه •• كان العبد فى صدرها قد انزوى • وبدأت تثور فى صدرها رغبة طاغية فى ••• فى الثأر •••

لم يكن يطمئن الى أنها دخلت حتى أغلق الباب ثم التفت اليها وسألها فى صوت مرتجف حانق

ـ اذن فلا شأن لى بك ؟ ـ فتشجعت وأجابته

ـ أجل • بأى حق تستعبدنى •• ـ فاقترب منها وقد تدلت خصلة من شعره الاسود حجبت عينيه • نفس

الخصلة التي كانت تتدلى أحيانا أثناء انهماكه فى العمل فتزيده فتنة . الا أنها ليلتئذ كانت أشبه بتلك القصة التى كانت تبرز من طاقية صبى الجزار الذى كان يحضر اللحم من المذبح كل صباح الى دكانه القريب من منزل أبيها فى «جنينة رشيد» .

ولما أدنى وجهه من وجهها كانت رائحة الخمر ماتزال تفوح من فمه كريهة . خانقة .. ومد يده فأمسك بشعرها وجذبها اليه . خطر لها أن تصرخ أو تستغيث . ولكن شيئا خفيا عقل لسانها . كأنها كانت تخشى أن ينقذه صراخها من مصير تتوقعه أو تعده له .. وبعد فترة صمت صاح ساخرا

ـ استعبدك ! نعم استعبدك ! ألم التقطك من الطريق ؟ ـ فانفجرت وهي تحاول عبثا أن تحبس دموعها

ـ اخرس ! كنت أستطيع أن أحمل اسم سيدك وتاج رأسك .. ـ فترنح فى وقفته وضحك بضع ضحكات قصيرة وهو يقول :

ـ ولكنك لاتستطيعين الآن .. من يرضى بك ؟ بمن كانت ..

وأحست بهذه الكلمات التى كان يقذفها بها وهو يترنح وكأنها سكاكين تمزق جلدها · وتنفذ الى أحشائها · فاندفعت اليه مادة يديها لتسد فمه قبل أن يكمل جملته ·· وهى تصيح

ـ اخرس ! اخرس !

وخيل الى منير عندما رآها تمد يديها أنها ستمتدى عليه فأسرع وصفعها صفعة قوية وعندئذ أمسكت بثوبه وهى تصرخ

ـ أنت الذى التقطتنى من الطريق أو أناالتى جعلت منك انسانا ! من كان يعرفك قبل أن تعرض تمثالى ؟ تمثالى أنا ! خيرى عليك ياندل ·· ـ فلف شعر رأسها على يده وركلها وهو يصر بأسنانه صريرا مخيفا

ـ يدى هذه هى التى نحتت التمثال وهى الآن التى تضربك ، انك لاتستحقين الا الضرب ـ وكانا اذ ذاك قد اقتربا من تمثال «أحلام الراعية» فرفع يده اليسرى وهوى بها يضربها على رأسها فلم تجد وسيلة للتخلص الا بأن تلقى بجسمها على الأرض ·· وكان شعرها اذ ذاك لايزال ملفوفا على أصابع يده اليمنى فانزلقت قدمه على الأرض الرخامية الملساء وفقد توازنه فهوى :

بكل ثقله واصطدمت رأسه بقاعدة التمثال فشجت ·
ولم تشعر الا وهو يصيح صيحة هائلة ·· وقد انفجر الدم
من رأسه غزيرا ·· سال حيث قد سقطت هى الأخرى ··

ذعرت عفت لمنظر الدم المتدفق من رأسه · وقد
تمدد جسمه الى جانبها فصرخت ··

ـ منير !·· ـ ولكنه لم يجب الا بأنة ضعيفة
خافتة ·· رأت صدره يعلو وينخفض سريعا · ثم
تقلصت ساقاه فى بطء · ولم تلبث أن سكنت كل حركة
فيه ·· كما حدث لأبيها عندما احتضر ··

واشتد فزعها فعادت تصرخ

ـ منير ·· تكلم يامنير · ماذا حدث لك ؟

ولكنه لم ينطق ·· كان كل شىء ساكنا حولها
سكونا رهيبا ·· فأيقنت أنه مات ··

وتلفتت حولها · رأت التماثيل ·· تماثيله التى
أفنى أعز أوقات حياته فى نحتها منتصبة دائما كتوابيت
الموتى ·

ورفعت يدها ·· رأت أطراف أصابعها قد تخضبت
بالدم ·· دم منير ··

فاقتربت منه وشخصت الى عينيه المغلقتين وقد غمرهما الدم · لم تتمالك نفسها من البكاء وهى محنية عليه ··

وانقضت مدة ·· ثم تنبهت الى خطر البقاء الى جانب جثته · ففكرت فى الهرب ·

وبعد أن مسحت الدم من يدها ألقت عليه نظرة وداع أخيرة ·· وفتحت الباب فى حذر ثم هرولت الى أول سيارة مارة وهى تقول لسائقها

ـ الى المنيل ··

٧

تلقاها الاستاذ حسنى بابتسامته الهادئة الحنون عندما اقتحمت غرفة مكتبه بالمنيل محلولة الشعر ·· مضطربة الثياب ·· واجمة السحنة ··ثم ألقت بجسمها المنهك على أول مقعد · فاقترب منها وسألها :

ـ ماذا بك ياعفت ؟ ـ وعندئذ تشبثت بأطراف ثوبه وهى تصيح باكية

ـ أتوسل اليك ·· أنقذني ·· ـ فعاد يسألها وقد ارتجف صوته

ـ ماذا حدث ؟

ـ قتلت ···

ـ قتلت ···؟!

ـ نعم ·· جئت اليك بعد أن قتلته ···

ـ من ؟···

ـ منير ·· منير عاصم ··

قصت عليه ماحــــدث كله ·· لم تخف شـيئا بل صارحته بكل شيء · أنصت اليها وهو يضغط على يديها المثلجتين ليبعث فيهما شيئا من الدفء وقد تجلت طيبته · فاطمأنت ·· شجعها على أن تفضى اليه بكل ماكان بينها وبين «المرحوم» منير

فلما انتهت ·· هز الاستاذ على حسنى المحـامى رأسه في بطء ثم سألها

ـ ألم يكن الخادم موجودا ؟

ـ لا ···

ـ ماهو شعور هذا الخادم نحوك ؟

ـ كنت طيبة جدا معه ·· وكنت دائمة العطف عليه ··

ـ وسيده ؟

ـ كان سيده يسيء معاملته ·· ـ وأطرقت الى الأرض ثم أكملت في صوت خافت · وهى تبكى ـ كان يسيء الى الناس جميعا · كان شريرا · ولكننى فى أول الأمر كنت أتعامى عن ذلك ·· كنت أحاول أن أكذب عينى · وأذنى ·· كانت سيطرته على سما زعافا يسرى فى عروقى · ويخدرنى ·· أكثر من ذلك كنت أسير وأتحرك وأجترىء على ما اجترأت عليه بلا ··· ماذا أقول ؟ بلا وعى ··· هل كنت ·· هل كنت أسير نائمة ؟

ـ ألم تتركى في البيت مايدل على أنك كنت تعيشين فيه ؟

ـ تركت ثيابى وبعض كتبى التى حملتها معى عندما غادرت بيت خالتى ··

ـ ومفتاح الشقة ؟

ـ معى ··

ـ هاته

ـ لماذا ؟

ــ هاته ·· وادخلى لكى تستريحى ··

وأسرع ففتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منها زجاجة دواء قدمه اليها وهو يقول ــ تناولى حبة من هذا الدواء ياعفت لكى تهدأ أعصابك ·· أنت فى حاجــة للراحة الآن

وزفر نفسا حارا ثم تمتم يحدث نفسه وهو ينظر الى عينيها طويلا ــ كنت أتعاطى هذا الدواء عندما كنت أفكر فيك فلا أستطيع النوم ··

ولما تناولت منه زجاجة الدواء غادر الغرفة بعد أن أخذ منها مفتاح الشقة التى «كان» يسكنها «المرحوم» منير ·· تبينت اذ ذاك مبلغ الحب الذى يكنه لها ·· وعظم التضحية التى أقدم عليها من أجلها ··

استعرضت ذلك الماضى القصــير الذى عاشــته مع منير ·· انتزعها انتزاعا من الوسط الذى نشأت فيه · ودفعها الى نمط من السلوك لم يكن لها به عهد · لوثها ·· فابتعد عنها أقرب الناس اليهــا · تحاشاها أعــز الناس عليها ·· أحست بأنها لم تعد جديرة بالحياة ·· الحياة التى تعيشها احسان صديقتها · وباقى زميلاتها ·· كان ممكنا أن يجهز منير ، فى نــوبة من نــوبات

ثورته ، على حياتها ·· فلم لا تتخلص هى بنفسها ·· من هذه الحياة ··

ولما أدارت رأسها فى الغرفة ·· توقفت نظراتها عبر النافذة على كوبرى الجيزة وماء النيل يتدفق · غزيرا · مندفعا · من بين قوائم الكوبرى الحجرية الضخمة ··

سكن كل صوت فى المنيل عندئذ · ولم تعد أذناها تصغيان الا الى خرير الماء المتدفق · المندفع ·· كان يدق سمعها كأنه يدعوها ·· ولكنها سدت أذنيها بكفيها ··

تذكرت الخطر الذى عرض الاستاذ حسنى نفسه له بذهابه الى منزل منير وجثته لاتزال ممددة على الأرض تنزف دما ·· ألا يجب أن تنتظر حتى يعود ·· لتطمئن ·· عليه !

***

لم تكد تراه مقبلا من بعيد حتى هبطت درجات السلم وأسرعت اليه تسأله فى لهفة

ـ ماذا فعلت ؟ ـ فأجابها وهو يدفعها الى الداخل بحقيبتها التى كانت قد تركتها فى بيت منير

ـ أحضرت كل ماكان لك فى «بيته» •• ـ وتبعته الى الصالون فأخرج من جيبه بعض أوراق متناثرة نظر اليها وهزها في يده وقد زاد وجهه امتقاعا •

ـ ماهذا الورق ؟

ـ مذكرات •• منير عاصم ••

ـ ولم أحضرتها ؟ ـ فأطال النظر اليها ثم قال فى صوت أجش

ـ لان فيها مايخصك •• ـ فأطرقت الى الأرض ثم همست

ـ ماذا قال عنى فيها ؟

ـ نامى أولا وسوف نقرأها معا فيما بعد

وعبثا حاولت أن تعرف منه شيئا فقد ألح عليها أن تستريح

كان يخيل اليها أنها فى حاجـة قصـوى الى النوم ولكنها لم تستطع •• لم يغمض لها جفن •• كان خرير الماء لايزال يدق سمعها •• كأنه يلح فى دعوتها ••

٨

فى الصباح المبكر غادرت الغـرفة التى تركهـا الاستاذ حسنى لها ونزلت الى الحديقة معتقدة أنه لايزال نائمـا • ولكنها رأته يتبعها الى حيث جلست ويسألها فى رقة عمـا اذا كانت قد قضت ليلة مريحـة • ولكنها كانت تفكر فى أمر آخر لن تسـتريح حتى تعـرفه •• سألته عن مذكرات منير التى عثر عليها فقدمها اليها • وقبل أن تبدأ قراءتها اقترب حسنى منها وسألها

ـ أيهمك كثيرا أن تعـرفى مافيهـا ؟ ـ فرفعت بصرها اليه •• كان يبـدو عليـه أنه لايرغب فى أن تقرأ ماتضمنته تلك المذكرات •• التى كانت تتحدث عن ماضـيها مع منير •• عن بدء عـلاقته بها •• عن «الراعية الغضبى» • فقالت له

ـ أبدا •• لايهمنى أبدا ـ فتناول ربطة الأوراق منها وتقدم الى المدفأة التى كانت تشـتعل فيهـا كتلة ضخمة من الخشب وألقى بها فيها ثم وقف ينظر اليهـا والنار تلتهمها •• وهو يهمس

ـ يظهر أن الخادم النوبى الصغير كان يحبك كثيرا ٠٠ لقد أعطانى هذه الربطة من الأوراق دون أن يدرى مابها ٠ كان يظن أنها عقــود خاصة بك ٠ لا مذكرات شخصية لسيده !

ونشرت الصحف خبر وفاة منير «بائع الأحلام» كما اعتاد النقاد الفنيون أن يلقبوه ٠٠ وذكرت شهادة الخادم الذى قرر أن سيده عاد الى المنزل ثملا وأن قدمه انزلقت على الأرض فارتطمت رأسه بقاعدة أحد التماثيل ٠٠

ولكن الصحف أضافت الى ذلك فقرة ارتعدت لهــا فرائصها فارتجفت الصحيفة فى يدها الى أن انتزعها الاستاذ حسنى :

« رغم شهادة الخادم فلا يزال المحققون يشكون فى حقيقة سبب الوفاة ٠٠ وهذا الشك تبرره شهادة بعض الجيران الذين قرروا أنهم يعلمون أن القتيــل كان يعيش فى نفس المنزل مع فتاة مصرية ٠ سأله بعض هؤلاء الجيران عنها فأخبرهم أنها زوجته ٠٠ تزوجها زواجا عرفيا الى أن توافق أسرتها على زواجها منه ٠ ليعلن اذ ذاك هذا الزواج ٠ وقد اختفت هذه الفتاة يوم الحادث ٠ كما اختفت الآثار التى تدل على حقيقة العلاقة التى كانت تربطها بالفنان القتيل ٠٠ ولا يزال التحقيق دائرا حول هذه النقطة الغامضة ٠٠ »

وأغمضت عينيها ثم أخـذت تتخيل الفضيحة التى تهددها لو أسفر التحقيق عما يستدعى سؤالها أو القبض عليها ..

وصرخت ثم رفعت ذراعيهـا فأخفت بهما عينيها خجلا من حسنى الذى كان واقفا أمامها يطوى الصحيفة فى هدوء ويضعها على المكتب . ثم اقترب منها وربت على كتفها فى رفق وهو يقول

ـ لاتجزعى ياعفت

فأجابته وهى لاتزال تحجب عينيها بذراعيها

ـ ألا تــرى كيف بدأت الصحف تتحـدث عنى ؟ فضيحة ! اننى لم أدخل فى حيـاتى قسـما من أقسام الشرطة ولا ساحة من ساحات المحاكم

فقال لها فى صوت متهدج

ـ انك لم ترتكبى أية جريمة . لاتخـافى . الله معك .. وسوف يعينني وأنا الى جانبك .. وعلى أن أظل الى جانبك . الله معنا .

وساد صمت . ورفعت ذراعيها عن عينيها وأطالت النظر الى وجهه .. كانت قسماته الوديعة تنطق دائما بالطيبة والحنان . بعد تفكير قصير تمتمت

ـ الله · أيمكن أن يكون الله مع فتاة مثلى ؟

وأراد آن يجيبها ·· ولكن الكلمات وقفت بين شفتيه المرتجفتين ··

وعاد الصمت يخيم على الغرفة ·· ترامى الى سمعها صياح صبية يلعبون فى الطريق · ويمرحون · وأنغام موسيقى صادرة من بيت مجاور تعزف قطعة «أفراح القبة» التى كثيرا ماطلب أبوها أن تعزفها له على « البيانو » فى بيت الأسرة بجنينة رشيد ·· أدارت رأسها فوقع بصرها على كوبرى الجيزة ·· كانت أنواره تتلألأ على الماء المتدفق تحته ·· ولكنها لم تعد تسمع خريره الهادر ··

وعندئذ مدت يدها وأمسكت بيده وهى تهمس فى حشرجة

ـ ولكن ·· لم لايكون الله معى ·· اننى لم أقتله · كنت أتمنى حقا أن يموت ·· ولكننى لم أقتله · هو الذى انزلقت قدمه وسقط · اننى بريئة ياحسنى ··

ولاحظت أن أسارير وجهه قد انفرجت عندما سمعها تناديه باسمه مجردا من كل لقب ·· وتشجع اذ ذاك فقال لها وهو يضغط على يدها بقوة

ـ قلت لك لاتخافى ٠٠ لن يصيبك سوء ٠٠

وشعرت اذ ذاك بشعور يختلف عن ذلك الذى كانت تشعر به نحو منير ٠٠ بأن الى جانبها رجلا متزنا ٠٠ يحميها ٠٠

وعلمت فى اليوم التالى من الخادم الصغير الذى كان يعمل عند «المرحوم» منير بأن الشرطة تبحث عنها ٠٠ فأخبرت حسنى بذلك وعندئذ آشار عليها بأن تتقدم الى وكيل النيابة الذى يتولى تحقيق حادثة وفاة منير بطلب سماع أقوالها فى تلك الحادث ٠ وقام فعلا فكتب ذلك الطلب وأرسله ٠٠ الى المحقق ٠٠

فى الموعد المحدد ذهبت مع الاستاذ حسنى الى دار النيابة وهى تغالب اضطرابها الشديد وآجابت على الأسئلة التى وجهها اليها المحقق بأنها كانت تعمل عند «المرحوم» منير عاصم مديرة لأعماله ٠ وآنه اتخذها نموذجا لتمثاله «الراعية الغضبى» ، وأنها انقطعت عن العمل ولم تتردد عليه الا بضع مرات لما استفسر منها عن بعض أوراق خاصة بعرض ذلك التمثال ٠

ولكن المحقق الشاب أطال النظر اليها بعد أن انتهت من أجوبتها ودق المكتب الذى أمامه بضع دقات ثم سألها

ـ ألم تكن بينك وبين منير عاصم علاقة أخرى غير علاقة العمل ؟

فنقلت نظرها بينه وبين الاستاذ حسنى وسكتت • ولكن الاستاذ حسنى رفع بصره اليها وقال لها فى لهجة حاسمة

ـ لم سكت ؟ أجيبى ـ فتمتمت

ـ أية علاقة ؟

ـ «س ـ ألم يكن بينك وبين القتيل زواج عرفى ؟ ـ فترددت • ثم أجابت

ـ عرض على الزواج أكثر من مرة فلم أقبل •• ولما سأله الجيران عنى بعد أن لاحظوا ترددى عليه أخبرهم بأنه تزوجنى زواجا عرفيا • كما علمت منه ••

ـ وهل وقعت على عقد زواج عرفى منك ؟

فامتقع وجهها ونظرت الى الاستاذ على حسنى تستنجد به فى الرد • وعاد المحقق يسألها

ـ ألم توقعى على عقد عرفى بالزواج ؟ ـ فأجابت متلعثمة

ـ لا • لا أذكر

وهنا تدخل الاستاذ حسنى وسألها

ــ ألم يكن منير عاصم يطلب اليك توقيع أوراق مختلفة ؟

ــ نعم

ــ بماذا كان يبرر طلب توقيعك ؟

ــ أحيانا بأنها أوراق خاصة بعقد العمل · أو بالتأمينات الاجتماعية أو بالضرائب ؟

ــ هل كنت تقرأين جميع هذه الأوراق قبل التوقيع عليها ؟

ــ فى بادىء الأمر كنت أقرأ بعضها · ولكننى لاحظت أن ذلك لايرضيه ·· وأحيانا كان يثور وينسب الى أننى لا أثق فيه · فكنت أسرع بالتوقيع دون أن أقرأ ماوقعت عليه ·

واستأنف المحقق سؤالها

ــ هل له صديقة أو ·· امرأة أخرى فى حياته ·· غيرك ؟ ــ فأجابته

ــ لا · لا أعرف

ـ س ـ ألم تهتمي بأن تعرفي ؟ ـ فترددت • ولما التقت نظراتها بنظرات حسني أجابت

ج ـ لا ••

ـ ألم يحدث مرة أن تشاجرت معه أو تشاجر هو معك ؟

ـ لم نتشاجر ؟

ـ بسبب الغيرة مثلا ؟

ـ لا •• لم تكن بيني وبينه عـلاقة تبرز الغـيرة ـ واقترب الاستاذ حسـنى اذ ذاك من الكاتب وكرر كلماتها عليه لكى يثبتها قائلا :

«ج ـ لم تكن بيني وبينه أية علاقة ••»

ولمـا انتهى التحقيق آذن لها المحقق بالخـروج فخرجت • وحاولت عفت أثناء الطريق أن تتحدث الى حسنى عما جرى فيه فلاحظت أنه لم يشأ العـودة اليه قط ••

ودهشت فى بادىء الأمر لذلك •• ولكنها تبينت أنه لم يعد يريد أن يسمع شيئا بعد ما سمعه فى النيابة عن العلاقة بينها وبين منير ••

ولما عادا الى مكتب الاستاذ حسنى وجدا عطية وزوجها عوض فى انتظارهما • هرولت عطية الى ابنتها تعانقها • وتقدم عوض الى الاستاذ حسنى يسأله عما تم فى تحقيق النيابة • فأجابه فى هدوء

ـ ••• حادثة وقعت قضاء وقدرا

واقترب عوض منه وسأله فى صوت خافت

ـ وابنتنا عفت ؟ لم استبدعيت الى التحقيق ؟

ـ ألم تكن تعمل عنده ؟ وجدت لديه أوراق تحمل اسمها • وعنوانها فاستدعيت ••

وسألته عطية وهى ترتجف

ـ هل ستستدعى مرة أخرى ؟

ـ لا أظن • لقد حلفت يمينا كشاهدة • وأدلت بشهادتها وانصرفت

وهمس عوض

ـ الحمد لله أنهم لم يجدوا فى بيت منير شيئا خاصا ب •• ـ فقاطعه حسنى

ــ ماذا يمكن أن يجدوا ! لقد ثبت في التحقيق أنه طلب الزواج منها مرات عديدة فلم تقبل ‥ ومع ذلك فقد كان يخبر الجيران بأنها زوجته ٠ بعقد زواج عرفي ‥

فصرخت عطية وهي تدق بكفها على صدرها

ــ عرفي ! بنت اسماعيل سعيد تتزوج بعقد عرفي !

فمد الاستاذ حسني يده وأمسك بيد عفت ثم ضغط عليها وهو يقول

ــ عفت وعلي حسني لن يتزوجا بعقد عرفي ‥ وانما سيتزوجان زواجا ستكونين أنت وعوض أول شهوده

وعندئذ صاحت عفت وقد تهلل وجهها فرحا

ــ واحسان صابر ‥ وجيراننا في «جنينة رشيد»

ولما نشرت الصحف أن التحقيق في وفاة الفنان منير عاصم قد حفظ اداريا ، وأشارت الى لقب «بائع الأحلام» الذى عرف به في الأوساط الفنية ــ كانت عفت قد أصبحت زوجة للاستاذ على حسني ٠

اللهب الدفين

ألقي نظرة عاجلة الى الرسـائل التى تلقـاها فى الصباح ولفت بصره مظروف أزرق صغير سقطت منه ورقة قرأ فيها هذه الكلمات مكتوبة بخط دقيق

«عندى أمر أريد أن أحدثك عنه · هل أستطيع أن أراك ؟

ناهد حلمى»

وكاد يلقى بالرسالة الى السلة الموضوعة الى جانبه فان العمل الصـحفى فى مجلة خصصت بابا للمشاكل الاجتماعية قد علمه أن ذلك «الأمـر الهام» لايعـدو أحيانا التحدث عن قضية شرعية تريد كاتبـة الرسالة

الحصول منه على دعاية لطلب حكم فيها بالطلاق لايزال معروضا على القضاء ثم يتضح له فيما بعد أن صاحبة الرسالة انما تلتمس الطلاق للتزوج من عشيق أغراها على هجر الزوج والأطفال ٠٠! وأحيانا أخرى سرد علاقة غرامية لصاحبة الرسالة بشاب تربطها به علاقة قربى أو صداقة أو زمالة تعنى بأن تؤكد فيها أن براءتها لم تلق الا غدرا وأن وفاءها لم يلق الا خيانة ثم يتبين أن شهيدة الغرام صاحبة الرسالة قد سجلت لها أحكام المحاكم علاقات مع رجال آخرين ٠٠ اعتاد اذن ألا يحفل فى زحمة العمل أحيانا بمثل تلك «الرسائل» ٠٠ وكاد يهمل رسالة ناهد حلمى لولا أنه لمح فى زاويتها العليا هذه الكلمات :

«الزقازيق فى ٢٤ أغسطس»

فعاد يطيل النظر الى الكلمات المكتوبة بذلك الخط الدقيق وكأنها محفورة بابرة من آبر «الكروشيه» ، وسبح فى دنيا قديمة من الذكريات ٠٠!

كانت الزقازيق مهد طفولته ٠٠ فأخذت صور مختلفة من تلك الذكريات تمر مسرعة بخياله ٠٠ ثم لم يشعر الا وهو يخط بضعة أسطر حدد فيها للآنسة ناهد حلمى موعدا

وانقضت أيام أخرى ··

ودخل أحد موظفى المكتب ذات أمسية وهمس فى اذنه قائلا :

ــ الآنسة ناهد حلمى تود أن تقابلك ··

وتذكر الرسالة الزرقاء ذات الخط الدقيق المحفور ·· وطلب منه أن يدخلها · وحاول أن يرسم صورة لصاحبة تلك الرسالة قبل أن يلقاها ، خيل اليه أنها لابد أن تكون آنسة متقدمة فى السن ·· فى السابعة أو التاسعة والعشرين مثلا ·· تلك التى تجرؤ على كتابة رسالة الى رجل لاتعرفه ·· وتطلب اليه أن يحدد موعدا لتقابله فيه · وبدأ ينسج تفاصيل أخرى حول شخصيتها · فتصور أنه سيلقى فتاة ظلت الى تلك السن بغير زواج لسبب قاهر ·· لحرصها ــ مثلا ــ على ألا تفقد «حصتها» فى معاش أبيها ·· ورجح أنه سيفاجأ باحدى أولئك الفتيات اللاتى تلقين تعليما ابتدائيا سطحيا فى احدى مدارس مجالس المحافظات وأن باب غرفته سيفتح على فتاة ممتلئة الجسم ·· بارزة الصدر كالكثيرات من فتيات الشرقية اللاتى كان يلتقى بهن وهن يتبادلن الزيارات مع الامهات أو الخالات أو العمات فى أمسيات

معينة ، لكل أسرة أمسية خاصة بها تستقبل فيها ردا لزياراتها للأسرة الأخرى كل فى الأمسية الخاصة بها

ولكنه دهش عندما دخلت الآنسة ناهد الى الغرفة. كان يبدو جليا أنها لم تتجاوز العشرين من عمرها . وقد ارتدت ثوبا رياضيا رشيقا . ثوبا آبيض تزين صدره ربطة بنية اللون على شكل فراشة . ولم تكد تتوسط الغرفة حتى أحنت له رأسها في رقة وديعة ومدت يدها فصافحته ثم جلست على المقعد المواجه للمكتب .. وبعد أن أجالت فى الغرفة نظرة فاحصة . قالت فى صوت هامس :

ـ ألم تفهم شيئا من اسمى ؟

وكان اذ ذاك قد أخرج رسالتها الزرقاء من درج مكتبه فأعاد النظر اليها وتمتم «ناهد حلمى» ثم آجابها

ـ لا أذكر أننى سمعت هذا الاسم من قبل ..

فابتسمت ابتسامة هادئة ثم قالت

ـ ياسلام .. ومع ذلك فأهل الشرقية تحدثوا كثيرا عن أبى .. رحمه الله .. تحدثوا عنه فى حياته .. وتحدثوا عنه بعد موته .. مات ميتة غريبة .. لا أظن أحدا فى الشرقية يجهل .. اسماعيل حلمى

انتفض جسمه كله اذ ذاك ·· ولم يشعر الا وهو يكرر

ـ اسماعيل حلمي ·· الاســتاذ اســماعيل حلمى المحامى ؟

ـ نعم

ثم تنهدت تنهيدة حارة طويلة وأخذت تهز رأسها هزات متقطعة كأرملة ثكلى أهاجتها ذكريات عزيزة !

فادنى وجهه منها · ثم قال :

ـ أأعيش فى الزقازيق خمس عشرة سنة دون أن أعرف اسماعيل حلمى ·! مؤكد أعــرفه ·· أعــرفه تماما

وتدفقت الذكريات الى خيــاله ·· ذكــريات أيام الدراسة الابتدائية والثانوية · وذكريات لجان الطلبة واجراء الانتخابات النيابية التى أظهرت نبوغ المرحوم الأستاذ اسماعيل حلمى وأهلته للنيابة عن الزقازيق · ومقدرته الخطابية الرائعة بعد أن دعمت مرافعاته أمام محكمة جنايات الزقازيق نجاحه فى المحاماة ··

كيف يستطيع أن يحرر خياله من ذكراه ؟ لقد لعب دورا كبيرا فى حياته

وحدق في الفتاة الجالسة أمامه . تذكر أنه كان قد قرأ فى الصحف عقب انتقاله مع أسرته الى القــاهرة والتحاقه بكلية الحقوق ثم اشتغاله بالمحــاماة تفاصيل النهاية الخفية المفجعة التى انتهت بهــا حيــاة النائب المحامى اسماعيل حلمى .. ولم تدعه الفتاة يسترسل في استعراض ذكــرياته فانهــا قالت له وهى ترفــع رأسها

ــ لم أعش تلك الفترة المجيدة من حيــاة أبى .. تركنى وأنا بعــد طفلة .. أتذكــر بيتنا على «بحــر مويس» ؟ تصور أننى أعيش فى هذا البيت الكبير وحدى ــ واختلج صوتها بالدموع وهى تهمس ــ .. مات وهو فى عنفوان الصحة والقوة .. قبل أن يتقدم به العمر .. لم يكن قد تجاوز الخمسين عاما

أخــذ يصغى الى كلماتها وهو مرهف السمع كأنه ينصت الى صوت بعيد !

وعادت ذكــريات اقامتــه بالزقازيق تهاجمه .. وتحوم حول شخصية الاستاذ اسماعيل حلمى .. كان اسمه يدوى فى كل مــكان .. كانت خطبه الانتخابية تنشرها الصحف المصرية الكبرى فى مكان بارز وتحت

عناوين ضخمة ٠٠ كانت المجلات المصورة تبرز صوره
في المناسبات العامة العديدة التي كان اسمه يتصل بها
٠٠ تذكر أنه كان يقلب أخيرا في بعض أوراقه فعثر
على عدد قديم من مجلة مصورة نشرت في صفحتها الأولى
صورة «المحامي النابغ الأستاذ اسماعيل حلمي٠ بمناسبة
مرافعته في قضية قتل كبيرة أمام محكمة جنايات مصر»
وكانت الصورة تمثله وهو مرتد (الروب) الاسود ذا
النجوم النحاسية ٠ والوشاح المتدلي وقد زانته في نهايته
قطعة من الفراء الأبيض ، كانت شهرته قد وصلت الى
القاهرة ٠٠ وألحت عليه ذكرى أخرى ٠٠ فقد استطاع
حلمي بعد مرافعة رائعة أن يحصل على حكم لصالح
أسرة كبيرة من أسر الشرقية في قضية هامة ، فلما خرج
من قاعة الجلسة الى الطريق تقدمتهزغاريد النسوة اللاتي
احتشدن في الخارج ، ولم يلبث أن رأى السيدات
القاطنات في المنازل المجاورة لمبنى المحكمة وقد أسرعن
الى النوافذ فأغلقنها ووقفن خلف (الشيش) ينظرن من
خلال ثناياه الى المحامي محمولا على أعناق موكليه ٠٠!

واندفع يقول لزائرته الشابة

ـ في الواقع هناك أشياء كثيرة تذكرني بالمرحوم
اسماعيل حلمي ٠٠ ـ فقاطعته قائلة

ـ انما هناك شيء واحد هو الذى يهمنى ٠٠ أتعرف كيف مات ؟ مات ميتة غريبة ٠٠ لقــد عرفت الصحف كيف تتحدث عنه وعن مجده في حياته ٠٠ ولكن لما مات لم يعرف أحد سر موته ٠٠

واختنق صوتها اذ ذاك ٠٠ واصفر وجهها النحيف ٠٠ وارتعشت أهدابها الطويلة وفجأة مــدت يدها الى حقيبتها وأخرجت ربطة صغيرة من أوراق كان يبدو أن العهد قد تقادم عليها وقد لفت بخيط حريرى ٠٠ خيط أزرق رفيع كان يحتضن ربطة الأوراق ويلمع من بعيد ٠٠ ثم مدت الربطة اليه وهى تقول :

ـ هذه الأوراق سلمتها لى أمى ـ رحمها الله ـ قبل وفاتها وقالت لى «اقرأى ما فيها ٠٠ انها تضــم أشياء لايعرفها أحد عن المرحوم أبيك الذى مات ولم يثأر له أحد ٠٠ من يدرى ؟ لعلك أنت تستطيعين أن تفعلى شيئا ٠٠ لعل هذه الأوراق تعينك على ذلك ٠٠ كل ماأنصحك به ألا تتسرعى ٠٠ فمازلت بعد طفلة ٠٠ تريثى الى أن يحين الوقت المناسب» ، ولما ماتت لم أكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمرى ٠٠ تصور ٠٠ أصبحت يتيمة الأب والأم وأنا بعــد فى تلك السن ٠٠ ومع ذلك فقد قرأت هذه الأوراق وأعدت قراءتها عشرات المرات ٠٠٠

وأطلت التفكير ثم اعتزمت ان اسلمها لك ، ان الحكومة لم تثأر لابى لانها لم تعرف حتى الآن من الذى قتله ·· ونشر مافى هذه الأوراق لن يبرىء ظالما أو يظلم بريئا ·· كل من جاء ذكرهم انتقلوا الى رحمة الله ·· الا أننى أشعر بأن هذا النشر سيرضى أبى فى قبره ·· أشعر أننى أثأر لأبى ··

ضغطت الآنسة ناهد على الكلمات الأخيرة ودقت على حافة المكتب بقبضة يدها المرتجفة ثم سكتت ··· حدقت فى وجهه وقد أبرقت عيناها وتهدج صدرها ولهثت كأنها عدت شوطا طويلا ·· ولما استراحت قليلا عادت الى متابعة حديثها قائلة :

ــ لا أطلب منك أكثر من أن تقرأ هذه الأوراق ثم أخرج منها بما يتراءى لك ·· قصة مسرحية ·· تحقيق صحفى ·· كما تريد ·· غير الأسماء ·· غير العناوين ·· غير الأماكن والبلاد ·· أو اكتبها كما هى ·· لايهمنى اذا فهم الناس أنها مكتوبة عنا ·· كل رجائى أن أرى وقائع هذه المأساة منشورة يقرأها الناس ويتحدثون عنها ، ويحزنون لها ·· ان أمى ــ يرحمها الله ــ لم تعرف كيف تستفيد من هذه الأوراق ولكننى بعد أن قرأتها طفلة وأعدت قراءتها شابة تكشفت أمامى

أشياء كثيرة لاشك أنك أقدر منى على التعمق فى ادراكها • أشياء لن يستريح ضميرى طالما بقيت فى طى الكتمان •

ثم ضغطت على يده وخرجت بعد أن تركت الربطة ذات الخيط الحريرى الأزرق •

***

وانقطع منذ ذلك اليوم لقراءة الأوراق التى تركتها له الآنسة ناهد حلمي . كانت عبارة عن ثلاثين صفحة منتزعة من «أجندة» من «أجندات» مكاتب المحامين • مكتوبة بخط الاستاذ اسماعيل حلمى • فى شكل مذكرات • وقد وضعت تحت بعض سطورها خطوط زرقاء رفيعة • لم يشك لحظة فى أنها لنفس الخط الذى كتبت به الرسالة التى وصلته بطلب تحديد موعد للتحدث فى «أمر هام» كما احتوت الربطة على رسالة من امرأة داخل مظروف كتب عليه

«حضرة المحترم الاستاذ اسماعيل حلمي • المحامى • شارع شريف بالقاهرة • خاص» وقد عرف توا اسم صاحبة الرسالة •• بل أن اسمها وحده هو الذى جعله يضع هذه القصة كلها •

١

منذ عشرين عاما ٠٠٠

كان أول عهده بسماع اسم الأستاذ اسماعيل حلمى عندما كان فى الثامنة عشر من عمره ٠

كان يستعد لاجتياز امتحان الأنتقــال من السنة الثالثة الى السنة الرابعة بمدرسة الزقازيق الثانوية ٠ ويستحث الخطى لكى ينتهى من تلك الدراسة الثانوية المملة التي كانت تحشوها البرامج بمواد الجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة التى كان يمقتهاولا تعلق من ذكراها فى خياله الا أنه وضــع يده ذات يوم فى جيبه بعــد استعمال « الزئبق » فى بعض تجــارب درس الكيمياء ثم أمسك قطعة من ذات العشرة قروش كان قد ادخرها لكى يقضى بها عصر اليوم بحديقة « وابور النور » في خارج البلد فطمس الزئبق معالم القطعة ٠ وظلت تفلت من يده وهي تتآكل دون أن يستطيع انقاذها !

كان يستعين على الترفيه عن نفســه ودفع الســأم عنها بقراءة بعض اعــداد قديمة من مجلات انجليزية دارجة الأسلوب ، سطحية المعلومات ، قراؤها من ذوى

الادراك الثقافى المحدود من الطهاة وسائقي سيارات في « الحانات العامة » كان يحصل عليها من زميل له في المدرسة كان أبوه متعهدا بيع المجلات والكتب بمحطة السكة الحديدية · وكان يخيل اليه أنه بقراءة تلك المجلات الانجليزية يرتفع بتفكيره ويسمو على زملائه !

ولقد أقبل على التاسعة عشر دون أن تتاح له فرصة الاختلاط بأوساط يسمح فيها بأن يتحدث شاب في سنه الى فتاة في مثل هذه السن ··· ابنة صديقة لوالدته ، أو زميله لشقيقته أو أخت لاحد زملائه ··· وقتئذ كانت قد انقضت أشهر على خلع « البنطلون » القصير الذى يكشف في الركبتين العاريتين بقايا التسلخات والرضوض التي تتخلف عن مباريات الكرة ذات الانبوبة المنفوخة في المدرسة · والكرة المكونة من جوارب المنزل المثقوبة التى تكرر رتق ثقوبها حتى دب اليأس منها فألقيت جانبا لكى تجمع وتتحول الى كرة ثقيلة خشنة ··

كان قد خلع ذلك « البنطلون » القصير و « السترة » ذات (القلابة) البيضاء الكبيرة التى تزينها خطوط كحلية اللون لتحاكى ثياب البحارة وبدأ يرتدى « البنطلون » الطويل كسائر الرجال · كما بدأ يتكلف سمة جادة فلم يعد يجلس على « الدكة » أمام باب المنزل

الى جانب الخدم يستمع الى احاديثهم فى اهتمام ويروى عنهم النوادر والحكايات ٠

وخطا خطوة جريئة أخرى نحو النضوج ٠٠ تعلم الخروج فى بعض الامسيات بعد العودة من المدرسة والذهاب ـ كغيره من شبان المدينة ـ الى شارع « المحطة » أهم شوارع المدينة ٠

لاحظ أن الشبان الذين يكبرونه سنا يترددون على دكان من دكاكين الصاغة كان يديره شاب فى نحو الخامسة والعشرين من عمره للجلوس على مقاعده الموضوعة فى خارج الحانوت على افريز الشارع لمشاهدة المارة فحاكاهم فى ذلك ٠٠ كان يعود من المدرسة فى عصر كل يوم لكى يضع كتبه فى المنزل ويقف برهة أمام المرآة يصلح فيها ربطة عنقه ٠ وينسق شعره الذى طالما تشاجر بسببه مع أبيه الذى كان يصرخ فى وجهه أمام الخدم ٠

ـ ليس عندى أولاد يربون شعورهم ويسدلونها كما تفعل البنات ٠٠ لم لاتفعل مثلما أفعل ! اننى أحلق شعر رأسى رقم ٣ ؟ أترى ؟ رقم ٣ ! ـ ثم يرفع «الطاقية» البيضاء عن رأسه ليكشف كيف اعتاد أن يحلق شعر رأسه ٠٠

وهو أمر كان يعرفه جيدا ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يصارح أباه بأنه كان يتقدم الى الخمسين من عمره بينما لم يكن « هو » قد تجاوز التاسـمة عشر ··· فلم تثنه تلك المشاجرات عن آن يتجه الى « الصـائغ » الشـاب ويشارك شبان المدينة جلستهم التقليدية على المقاعد ·· والنظر الى المارة ·· أثنـاء التظاهر بقـراءة صحف المساء ·

قلما كان يعنيه في الواقع خبر من الأخبـار التى كانت تشتمل عليها تلك الصـحف ·· اذ كان ينصـت باهتمام شديد الى الأحاديث التى كانت تدور بين الشبان حول مغامراتهم الغرامية ·· ويظهر أن أكثرهم توفيقا في تلك المغامرات كان نفس «الصائغ» الذى اعتادوا الجلوس أمام دكانه ! فقد فهم أن ابنة أحـد أصـحاب المقاهى اليونانيين قد أحبتـه · وأن المدينـة كلها قد أتصل بها خبر ذلك الحب · وقد سمعه مرة يقول لزميله عبد الحليم شاكر الذى كان يكبره بنحو عامين رغم أنه كان يزامله في نفس السنة الدراسية ·

ـ ليلة أمس جاءت « كليوبى » الى بيتى عند منتصف الليل وأيقظتنى ·· كانت تبكى بحـرارة وهى تردد « يريدون أن يزوجونى ·· غصبا عنى ··· عرف أهلى

أنني أحبك ولكن ··· كيف يمكن ان أعيش مع غيرك ·· خذني ·· خذني يافريد ·· خـذني عنـدك ·· أعيش معك باللقمة ولا أعيش مع غيرك ·· مع أى رجل غيرك ··· » كانت قد جـاءت بملابس النـوم فتأثرت تأثرا شديدا وحاولت عبثا أن أكفكف دموعها ·· الا أنني تبينت أن نحيبهـــا قد أيقظ بعض الجـيران وأن بعضهم وقف خلف النوافذ المغلقة ينصت الى حـديثنا · فقلت لها « كيف تجيئين بهذه الحاله فى منتصف الليل ·· أجننت ؟ يجب أن تعودى الى بيتك توا ·· ماذا يمكن أن يقوله أهل البلد اذا طلع الصباح وأنت فى بيتى ؟

وأحس « هو » فى أعماقه بحسد ·· ولكنه أخفاه وتظاهر بالانصات الى حديث صديقه الصائغ الذى أتاح له الحظ أن يدل ويتيه على «كليـوبى» التى لم ينـل «هو» حتى متعة التحدث اليها ··· كان فعلا قد اعتاد أن يتردد على المقهى الذى كان يديره أبوها فى مساء الخميس من كل أسبوع للعب البلياردو · وكان يتعمد أن يدور حول مائدة (البلياردو) الضخمة لكى يواجهها وهى جالسة على مقعدها العالى خلف (الكيس) تطـرز قطعة من القماش فى يدها ولاترفع بصرها الا كلما أقبل أحد خدم المقهى ليقدم حسابا عن عمله !

حاول عبثا أن يسترعى انتباهها ·· وأخيرا علم أن أحد زملائه قد حاول مغازلتها فابتسمت ساخرة ثم أرسلت من يصارحه بأنها تعلم جيدا بأن الطلبة يحبسون أنفسهم داخل بيوتهم طول الاسبوع ليدخروا بضعة قروش يقضون بها سهرة ليلة الجمعة فى مقهى أبيها وانها اذا كانت تحتمل مغالطتهم أثناء الحساب على عدد قطع «الجاتوه» التى تناولوها من الواجهة الزجاجية الموضوعة فى أقصى المقهى ·· فانها لاتحتمل مغازلتهم ·!

وانقضت بضعة أسابيع أخرى على تردده على الصائغ وقضاء أمسية كل يوم على باب حانوته مع طائفة من الموظفين والمحامين ·

كانت نزهة البلدة الوحيدة هى الذهاب مرة فى كل أسبوع الى حديقة (وابور النور) التابع لمجلس بلدى الزقازيق · لسماع الموسيقى والتريض فى طرقات الحديقة · وكان يلاحظ فى كل مرة يذهب فيها الى تلك الحديقة سيرا على قدميه طبعا · أن فريدا · «الصائغ» كان يحضر دائما بعربة من عربات الاجرة «الحنطور» وقد ارتدى ثوبا أنيقا حاكه له «ترزى» بالقاهرة حصل على عنوانه بعض أبناء الأعيان فحاك لهم ثيابا أنيقة ، وطالما رجا أباه أن يحيك ثيابه عنده فكان يرفض لانه

أغلى من «الترزى» الريفى الذى اعتاد أن يحيك لهما !
كانت «كليوبى» ابنة صاحب المقهى اليونانى تحضر الى نفس الحديقة فتثير اهتمام الشبان بفتنتها ورشاقتها. وتلوى أعناق الفتيات بما كانت ترتديه من ثياب أو ماكانت تتزين به من حلى ، أو ماكانت تنشره خلفها من أريج عطر • وكانوا جميعا يتهامسون بأنها انما حضرت لترى فريدا •• وان كانت تقاليد البلد اذ ذاك لاتسمح بأن تحادثه علنا فان أصدقاء فريد كانوا يعرفون ـ منه على الأقل ! ـ بأنها تحضر اليه فى منتصف الليل بعد أن تخلو طرقات البلد من المارة وبعد أن تنطفىء الأنوار فى بيوت الجيران •

طالما ساءل «هو» نفسه : «أيمكن أن أصادف يوما ما فتاة تتدله حبا لى كما تدلهت «كليوبى» حبا لفريد !»

ولكنه لم يجد تلك الفتاة !

وتدفقت ذكريات الحرمان الذى عاناه فى صدر شبابه •••

رجع من المدرسة فى عصر ذات يوم من أيام الربيع فلاحظ زحاما أمام منزل عبد الخالق عبد الصادق • أحد أعيان البلد • والد صبحى أحد زملائه فى المدرسة •

ولما سأل عن السبب همس صــبى «البقال» الذى تحت المنزل فى أذنه قائلا :

ـ بنت صاحب البيت على صلة بعامل الصيدلية التى قدامنا فى نفس الشارع . وقد اعتادت أن تبعث اليه خطاباتها مع خادمتها . ولكن أباها ضبط اليوم أحــد هذه الخطابات فلما علمت ابنته بذلك تجــرعت بعض زجاجة حامض «الفنيك»

ونظر الى الجهة المقابلة فوجد صيدلية وقف فيهــا شاب فى الثلاثين من عمره يعرض دواء على سيدة ريفية . ويشير الى أحد عماله بأن يهتم بأخرى كانت تحدق فى الواجهــة الزجاجية التى تضــم مجموعة من زجاجات العطور .

لم يكن يعرف من قبل ذلك العــامل الذى حاولت أخت زميله صبحى أن تنتحر من أجــله . ولكنه أحس نحوه بشعور من الحقــد .. و .. والحسد .. الحسد الذى سبق أن أحس به نحو فــريد .. كيف اتصلت أخت زميله صبحى بذلك العامل ؟ ماذا أحبت فيه ؟

وبينما كان يطيل النظر الى الصيدلية أقبل صبحى متجها الى بيته . لاحظ أنه كان يحاول ألا يتحدث اليه . ولكنه سأله عما حدث فأجابه فى هدوء متكلف .

ـ خادمة عبيطة ·· شتمتها والدتى لانها كسرت احدى الأوانى وأنذرتها بخصـــم ثمن الآنية من راتبها فاشعلت النار فى ثوبها ·· كادت تجىء لنا بداهية !

وفى أثناء عودته الى منزله يومئذ كان يسائل نفسه «لم يتكبد والدى كل هــذا العناء فى الانفــاق على اعدادى لأربعــة أعوام أخــرى سأقضــيها فى دراسة الحقوق ··!»

ولما خلع ثيابه ألقى بكتبــه جانبا وهو يتمتم «لم لاأشتغل صائغا ؟ أو عاملا فى صيدلية ؟!»

٢

وانقضت بضعة شهور أخرى ···

وفجأة لاحظ «هو» أن الاســتاذ اســماعيل حلمى المحامى قد بدأ يجلس مع بعض زملائه المحامين الىجانب احدى الموائد الموضوعة على «الرصيف» فى مقهى والد «كليوبى» ·· الذى لم يهتم فى يوم ما بأن يعرف اسمه! والمواجهة لدكان فريد الصائغ ·

كان أهل الزقازيق يتناقلون أخبار نجاحه المستمر في المحاماة وتوفيقه الدائم فى الخطب التى كان يلقيها أثناء المعركة الانتخابية · أنه ولاشك سيثير اهتمام «كليوبى» ان لم يفز باعجابها ·

وكان موعد امتحان الشانوية العامة قد اقترب فاتفق مع زميله عبد الحليم شاكر ابن مأمور المركز على أن يذاكرا سويا فى منزل عبد الحليم الذى كان يطل على بحر مويس ·

وحدث ذات ليلة بينما كانا منهمكين فى مراجعة كتاب التاريخ أن طرق سمعه صوت سيدة كانت تتحدث بصوت مرتفع فى غرفة «المسافرين» وهى الغرفة التى كانت ملاصقة تماما لغرفة المكتب · أثار اهتمامه «هو» بنوع خاص أنها كانت تقحم فى حديثها بضع تعبيرات انجليزية كانت تنطق بها فى لهجة سليمة · خيل اليه أنها أسلم من لهجة مدرس اللغة الانجليزية فى مدرسة الزقازيق ·· ودهش ·· هذه اللهجة ·· وهذا الالقاء الناعم المتزن ·· وهذا الحديث عن بعض المجلات الثقافية الانجليزية من سيدة تعيش فى الزقازيق ··! وأعار سمعه كله الى ماكان يدور فى غرفة «المسافرين»

من حــوار بين زوجـــة مأمـــور المركز والدة زميله وصديقاتها ٠

ثم سأل عبد الحليم فى صوت هامس

ـ من هذه ؟ ـ فأجابه وقد استراب

ـ سميره هانم

ـ سميره هانم من ؟

ـ سميره هانم حسنى ٠ ابنة رجل تركى غنى مات وترك لها سبعين فدانا فى ههيا ٠٠

فألقى نظرة ملل وضجر الى كتاب التــاريخ وهــو يتمتم

ـ سميره هانم حسنى ٠٠

وانقضت فترة صمت كئيب ٠٠ ظل صــوت سميرة هانم يعلو على أصوات الأخريات من الزائرات فى غرفة الاستقبال أو «غرفة المسافرين» كما كان يدعوها أهل تلك الطبقة من الأعيــان وكبــار الموظفين والمحــامين والأطبــاء الذين كانت تتبــادل زوجــاتهم الزيارات الاسبوعية ٠ كانت تتحــدث عن الانتخابات ٠٠ وكان القاؤها أوقع فى النفس من القــاء مدرس التاريخ ٠

الذى حدثهم يومئذ عن حروب نابليون فى الساعة الثالثة من بعد الظهر بعد أن تناولوا قدرا كبيرا من «الباذنجان المكمور» فى مطعم المدرسة أو «اليمكخانة» كما اعتاد أن يدعوها موظفو المدرسة والعاملون فيها فلم يكد الواحد يجلس على مقعده حتى راح فى سبات عميق • وظل مدرس التاريخ يشرح حروب نابليون لفصل يغط فى النوم ! وألقى كتاب التاريخ جانبا ثم اقترب من باب غرفة «المسافرين» ووضع أذنه على ثقب الباب لينصت ••

ولما سأله زميله عبد الحليم مندهشا

ــ ماذا جرى لك ؟ اننا نسمع من هنا كل مايدور هناك من حديث ــ تبين «هو» أنه لم يكن يريد أن يسمع وانما كان يريد أن يرى

ورأى سميره هانم ليلتئذ ••!

كانت امرأة فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها• طويلة القامة ممتلئة الجسم فاحمة الشعر • واسعة العينين تضع ساقها اليسرى على الساق اليمنى • وتنفث دخان سيجارتها فى جو الغرفة بشراهة • وقد بدت ابتسامتها الماكرة من خلف سحب الدخان •

وارتجف ...!

حاول زميله عبثا أن يقنعه بالعودة الى المذاكرة في كتاب التاريخ ..

ظل يحدق من ثقب الباب في سميره هانم .

ولما أدرك أن الزائرات يتأهبن لمغادرة المنزل أسرع بهبوط الدرج يتبعه عبد الحليم وتلكأ حتى خرجت الزائرات تتقدمهن سميره هانم بقامتها المهيبة وهى لاتزال تتحدث بانطلاق ولما لحظت أنه وزميله قد ابتعدا عن الباب الخارجي كأنهما يخليان الطريق للسيدات متظاهرين بالالتفات الى الجانب الآخر من الطريق فى احتشام كما يفعل رجال البلد كلما حرصوا على ألا تلتقى أبصارهم بابصار من يصادفون من سيدات ـ التفتت اليهما وهى تقول ضاحكة

ـ أيه ! يعني كبروا وأصبحوا رجالا .. الأطفال أولاد البارحة !

فاقترب عبد الحليم منها وقال مشيرا الى زميله

ـ صاحبى هذا مغرم بقراءة المجلات الأجنبية مثلك يا «تيزه»

فالتفتت اليه ثم قالت :

ـ المجلات يجب ألا تشغله عن دروسه ـ وابتعدت مسرعة

حتى سميره هانم التى تكبره بنحو عشرين عاما لم تعن بالتحدث اليه ..

٣

ـ أحلف أنك ما ذاكرت شيئا اليوم

ـ من قال لك ؟

ـ ظاهر عليك . ماسك الكتاب فى يدك وأنت شارد الفكر . فيما كنت تفكر وأنت تشخص الى الافق البعيد . ما الذى يشغلك فى الضفة الأخرى لبحر مويس ؟

ـ كنت أفكر فى .. فى مستقبلى

فأرسلت ضحكة قصيرة ثم قالت ساخرة

ـ مستقبلك !

ـ ما الذى يضحك فى الاشارة الى مستقبلى ؟

ـ لاشيء ٠٠ ربما خطر لى أنك لايكاد يكون لك حاضر حتى تفكر فى المستقبل !

ـ ألا يجب أن اختار الكلية التى ألتحق بها بعد اجتياز دراستى الثانوية هذه السنة ؟

ـ أية كلية ؟

ـ الحقوق

ـ الحقوق ؟

ـ مالها ؟

بعد أن دار هذا الحوار بينه وبين سميره هانم ذات ليلة فى منزل مأمور المركز والد زميله عبدالحليم أطرقت سميرة وساد صمت قصير لم تلبث أن رفعت بعده رأسها وقالت له وهى مشرقة الوجه

ـ خير ما اخترت ٠ من يمكن أن يلومك على اختيار كلية الحقوق ٠٠ يكفى أن الاستاذ اسماعيل حلمى تخرج منها

ولم يرتح لانها اختارت دون غـيره من المحـامين اسماعيل حلمى الذى اعتاد أن يتخذ جلسته فى مقهى والد «كليوبى» • الم تكفه تلك الفتاة اليونانية التى فتنت شبان المدينة • حتى جاء يزاحمه فى عطف سميرة هانم ؟

ولم يتردد فى أن يسألها

ـ لم خطر ببالك الاستاذ اسماعيل حلمى بالذات ؟

فأطالت النظر اليه ثم قالت وهى تسترد ابتسامتها

ـ لازم تسمعه وهو يخطب •• باكر سيخطب أمام جامع (العيدروس) بعد صلاة الجمعة •• فى اجتماع انتخابى • شاب مثلك يعتزم الالتحاق بكلية الحقوق • ويأمل فى الاشتغال بالمحاماة يجب أن يحضر مثل هذه الاجتماعات •

ـ أسمعته ؟

ـ نعم سمعته هنا وفى القاهرة •• مدهش • خلق لكى يكون خطيبا • أعتقد أن جسم الخطيب له تأثير كبير على نجاحه • لا أظن رجلا قزما يمكن أن يوفق كخطيب أما هو •• فانه مرتفع القامة • عريض الصدر • عالى الكتفين • اشارات يديه ونبرات صوته تنبىء بالاعتزاز

وتدعو الى الثقة · ماذا اقول لك ؟ انه ·· انه رجل بكل ماتعنيه كلمة رجل ·

كانت سميرة تلقي هذه الكلمات في ايمان وتأثر · الكلمات تتساقط من فمها كأنها قطع تتفتت من شغاف قلبها ·

وخيل اليه أنها تمعن التفكير في اسماعيل حلمي والاعجاب به الى حد محاولة تقليد أسلوبه في الخطابة · بل خيل اليه أنها ودت لو تحملت عنه بعض عناء هـذه الخطابة !

بعد أن سكتت قليلا لتستجمع قواها · اقتربت منه وقالت له في لهجة ارتعب منها

ــ مدهش ! لم أر من قبل رجلا مثله · كلما كان يدق على المائدة التي كانت أمامه بقبضة يده كان يخيل الينا أن سقف القاعة سيهوى على رؤوسنا · كان كل من يستمع اليه يلتفت الى جاره كأنه يحتمي به · رجل جبار !

ذهل وهو يســمع ذلك الثناء العجيب على الاستاذ حلمي ··

كانت عينا سـميرة تبرقـان ٠٠ وكانت أطـراف أصـابعها ترتعش وهى تذكر الأسـتاذ اسـماعيل ٠٠٠ خطر له أن يتكلم ٠٠٠ أن يقول شيئا ٠ أى شيء ٠ أن يسألها كيف عرفت اسماعيل حلمى ولكنه لم يستطع ٠ فغرفاه وأنصت ٠٠ كأنه أحد الذين يستمعون الى خطب المحامى النابغ ٠ تبين أنه لو سألها لاغضبها ٠

لم يكن يريد قط أن يغضب سميرة هانم !

وعاد السكون يخيم على الغرفة ٠٠

وكأنها شـعرت أنها ألهته بذلك الحـديث الطويل والذى لا يهمه بقـدر ما يهمها عن مذكـراته فتناولت كتابا كان مفتوحا أمامه وجلست وهى تقول

ـ سأرى اذا كنت قد ذاكرت ما فى هذه الصفحة

فارتاح ٠ كان قد تضاءل وتلاشى طيلة حديث سميرة عن اسماعيل حلمى ٠ ولكنه استعاد بعض الثقة بنفسه ٠

لم يسبق لسيدة لا تربطه بها صلة قرابة أو نسب أن اهتمت بأمره ٠

أيعنيها حقا أن تطمئن الى أنه ذاكر دروسـه ٠٠ ويهمها أن تطمئن الى نجاحه فى امتحان أخر السـنة ؟

ووجهت اليه بضع اسئلة استطاع أن يجيب عليها ·· ثم طلبت اليه أن يحضر لها بعض أعداد من المجلات الاجنبيــة التى يحتفظ بها وتقدمت الى خــارج الغرفة متأهبة لمغادرة المنزل يتبعها عبد الحليم ابن صــاحبة المنزل · ولكن سميرة هانم استدارت بحــركة رشيقة وعادت اليه ثم سألته فى صوت هامس

ـ لم تسألنى أين تحضر المجلات التى طلبتها منك ·

فرفع رأسه وسألها بسذاجة ·

ـ أين !

ـ عندى فى البيت · أنا ساكنة فى آخر البلد · الأبنية الجديدة جارت على الأشجار التى كانت مزروعة على جانبى الطــريق الزراعى فأزالتها · ولكن لحسن الحظ أن شجرة توت وشــجرة جميز قديمتين لاتزالان أمام باب بيتى تهديان اليه ·· لايمكن أن تتوه ·

فأحنى رأسه وقد انعقد لسانه فلم يستطع النطق

ربتت على كتفه ثم أسرعت الى الباب ··

وتركته حائرا ··

خطر له أن يعدو خلفهــا ويشــكرها ·· ولكنــه خشى أن تسأله «لم تشكرنى !»

أيجوز أن يصـارحها بأنه حـاول ان يثير اهتمام «تنليوبي» به فلم تحس به لانها كانت متيمة بحب فريد الصائغ ؟ أيمكن أن يكاشفها بأنه فجع عندما علم بشروع شقيقة زميله صبحي عبد الصبور في الانتحار لا لأنها كادت تعصف بشبابها الغض ولكن لانه اتضح له أنها تتبادل رسائل غرامية مع عامل في صيدلية مع أنه «هو» لم يجرؤ على مجرد التحدث اليها خشية أن تصده !

ظل حائرا الى أن انقضت بضع ثوان أخـرى ٠ وسمع صوت عربتها منطلقة في الطريق ٠ فقد كانت سميرة هانم معروفة بعربتها ذات المصابيح النحاسـية اللامعة ٠ يجرها جوادان يحدثان عند انطلاقهما صـوتا أصبح مألوفا لدى أهل الزقازيق ٠ الذين كانوا يعلمون من ذلك الصوت بمرور عربتها أمام بيوتهم وهم جلوس في بيوتهم دون أن يطلوا من نوافذها ٠

وظلت أذنه تتبع حوافر الجـوادين وهي تدب على أرض الطريق حتى تلاشى صوتها ٠ فتقدم الى النافذة وأطل ٠٠ أطل على الأفق عند نهاية البلدة ٠٠

وفي طريق عودته الى بيته ليلتئذ كان يتوقف أمام بعض أشجار التوت والجميز المتناثرة ـ على ضفة ترعة

«بحر مويس» ويتأملها فى ألفة .. لم يعهد فى نفسه من قبل مثل هذه الألفة ..

٤

لم يشغل تفكيره فى صباح اليوم التالى الا جمع أكبر عدد من المجلات الانجليزية التى لديه والذهاب بها الى منزل سميرة هانم .

كان سعيدا .. لم يعد يشعر بذلك الفراغ الكئيب الذى كان يغذيه . بذلك الحرمان من اهتمام اية امرأة به ... عندما خطر فريد الصائغ بباله أسرع فطرد ذلك الخاطر . لايمكن أن تهتم سيدة مثقفة كسميرة بمثل ذلك الصائغ الأمى .. انها اذا اهتمت فانها تهتم برجل .. رجل كالاستاذ اسماعيل حلمى .. ولكنه لم يرتح أيضا الى هذا الخاطر .! أطال النظر الى المرآة . خيل اليه أن العمر تقدم به عشرة أعوام أو اثنى عشر عاما .. أنه أصبح رجلا فى الثامنة والعشرين أو الثلاثين .

ومر بأنامله على ذقنه .. كانت بعض شعرات خشنة قد نبتت بعد أن حلقها فى اليوم السابق ففضل ألا يزيلها .. انه يبدو بها أكثر رجولة

اختار أحــدث بذلة لديه ·· تمنى اذ ذاك لو أن والده أجاب طلبه وقبل أن يحوك تلك البذلة الترزى القاهرى الذى يحوك بذل فــريد الأنيقة ·· وســاءل نفسه · هــل يخبر أصــدقائه بزيارته لســميرة هانم ؟ ولكنه اعتزم أن يبقى هذه الزيارة سرا لايفضى به الى أحد · أن يخفيه عن الجميع · حتى عن عبد الحليم ·

ولكنه تذكر أن باب حديقة منزلها يطل على الطريق الزراعى المطروق وأن أهل الزقازيق مغرمون بالثرثرة فقد تناقلوا تفاصيل علاقة «كليوبى» اليونانية بفريد الصائغ · الا أنه سخر من نفسه عند التفكير فى علاقة فريد بفتاته اليونانية · ان الأمر بالنسبة له لايعدو أن سيدة فى سن أمه طلبت اليه أن يحضر لها بعض المجلات فى بيتها !

ومع ذلك فقد اعتزم أن يذهب اليها بعد الغروب عندما تكون حركة المرور بالطريق الزراعى قد خفت · ربما فضلت هى ذلك ·

ولما غربت الشمس اتجه الى خارج البلد · ووقف من بعيد يختلس النظر الى حــديقة البيت الذى تقطنه سميرة هانم حسنى ··

كان الظلام قد خيم .. وسكنت الحـركة فى ذلك المكان النائى عن البلدة . وبدت شجرتا التوت والجميز كأنهما حارسان أمينان يحميان ســاكنة البيت من كل سوء !

وحدق النظر الى البيت ذى الطابق الواحد الذى كان يختفى خلف فروع بعض شجيرات الزينة .. وقـد أغلقت نوافذه كلها .. فارتجف . اذ تذكر ترجمة كان قد قرأها من قبل لقصة «هى : أو عائشة» وهى تدور حول امرأة غامضة تستدرج عشـاقها الى بيت بعيد ثم تفترسهم واحدا .. بعد الآخر ..

وخيل اليه أنه أحد عشاق امرأة فى سن أمه .. كان «هو» فى التاسعة عشر و «هى» فى الخامسة والثلاثين أو تزيد ؟

خطـر له أن يعـــود من حيث أتى .. ولكنــه تردد ..

لم يعود ؟

ولمن يعود ؟

للجلوس على مقعد من مقاعد «الرصيف» فى شارع المحطة . يشــاهد المارات من فتيات الأسر اليـونانية

ويستمع الى مغامرات فريد الصائغ ٠٠ وحكايات دلاله على «كليوبى» ٠٠!

لقـد ثار اذ ذاك على كل ذلك المـاضى الكريه فلم يسترسل فى ذكريات الحرمان الذى عاناه

وتقدم الى الباب ٠ ضـغط على «الجرس» فأضىء نور بسيط فى احدى طرقات الحديقة وظهر خادم ريفي لم يكد يعلم أنه قادم لمقابلة صاحبة البيت حتى قاده الى الشرفة المطلة على الحديقة والتى ترتفع عنها ببضـع درجات رخامية عريضة

ومن بعيد سمع صوت سميرة هانم

ـ أهلا وسهلا ٠٠ ـ ثم أقبلت فى ثوب فاتن من (ثياب الغرفة) شف عن مفاتن جسمها وقد تهدل شعرها الاسود على عنقها ٠ ومدت اليه يدها قائلة :

ـ أرأيت ؟ لايمكن أن يتوه راغب فى زيارتى ٠٠ ومع ذلك فانك لو سألت أى مار فى هذه المنطقة عن بيتي لدلك اليه ٠٠٠ ـ وعندئذ استجمع قواه وتمتم

ـ حتى لو تهت أيجوز أن أستعين بأحد لكى أهتدى الى البيت ؟

ــ لم لا ؟ ــ فتردد ثم أجابها هامسا

ــ لم يعرف الناس أننى قادم لزيارتك !

وعندئذ أرسلت ضحكة عالية لم تخل من سخرية وقالت :

ــ مدهش ! ماهذا كله ؟

وبعد أن أحضر الخادم القهوة • اقتربت سميرة منه وقالت :

ــ أنت طبعا لم تر حديقتى • تعال انزل معى ــ وسبقته الى السلم الرخامى العريض فتبعها •

ووقفت سـميرة تحت «تكعيبة» العنب التى كانت تظلل بضعة مقاعد صنعت من البوص الغليظ الضخم •• ثم التفتت اليه فجأة وأمسكت بيده وهى تقول :

ــ مكان هادىء •• منعزل عن البلدة • لم لاتجىء للمذاكرة هنا كلما تضايقت من المذاكرة في بيتك • أظن أنك تسكن فى منطقة كثرت بها حوانيت الحدادين والنجارين • ضجة لاتعينك على المذاكرة • تستطيع أن تجىء فى أى وقت •• فى أى وقت • للمذاكـرة فى الشرفة أو فى الحديقة •• أو •• ــ وترددت قليلا ثم

تنهدت واستمرت قائلة ـ أنا أعيش وحدى فى هذا البيت كله • لن تجد أحدا يزعجك • تستطيع أن تجىء حتى أثناء غيبتى عن البيت •

وضغطت أصابعها على يده كأنها تتشبث به

وتأجج لهب •• لهب دفين فى أحشائه • كان قد أحس بلسع هذا اللهب عندما سمع صوتها لأول مرة فى بيت زميله عبد الحليم • ولكن لمس يدها فى ظلام الحديقة أشعل اللهب •

وسادت فترة صمت طـويلة •• كانت أصـابعها لاتزال متشبثة بيده •• دون أن ينطق أحدهما بكلمة •• أحس بدفء يدها • هل اشتعل فى أحشائها لهب كاللهب المشتعل فى أحشائه ؟ وجذبت يدها برقة كأنها خجلت من أن يكتشـف سر ذلك اللهب • واتجهت الى الشرفة وقد رفعت كتفيها فى رشاقة وهى تقول :

ـ أن الجو يبرد فجأة فى مثل هذا الوقت من الليل • يحسن أن أضع شيئا على كتفى •• ـ لم يكن الجو باردا ولكنه تخيل أنها كانت ترجو أن يكون باردا • أن يلطف على الأقل من ذلك اللهب الذى يسرى فى عروقها • أو أنها كانت تريد أن تقول شيئا • أى شىء •

وتبعها ٠٠ فلما وصلا الى الشرفة التفتت اليه فجأة وهى تقول ٠٠ كأنها تذكرت شيئا هاما

ـ آه ٠٠ تعال أريك البيت كله من الداخل

وأخذت تنتقل به من غـرفة الى أخـرى ٠ حتى وصلت الى غرفة المكتب فأشارت الى صورة رجل فى نحو الخمسين من عمره معلقة على الحائط وقالت :

ـ هذا هو زوجى ٠ لا أظنك سمعت به ـ وكتمت ضحكة صغيرة جافة ـ لم تكن أنت قد ولدت عندما كان هو طبيبا ناجحا فى ههيا ٠٠ ـ وخفت صـوتها وهى تقول ـ راح فى خمس ساعات ككثيرين غيره من أبناء مهنته ٠ جرح بسيط فى أصبعه أثناء اجـرائه لعملية جراحية تسمم جسمه على أثره ٠

وأخذت تبحث بين بعض الأوراق المهملة الموضوعة على المكتب حتى أخرجت من بينها صورة صغيرة لرجل معمم أشارت الى وجهه الذى شاع فيه طرفا شارب ضخم مفتول وقالت وهى تطلق بضع ضحكات ساخرة ٠

ـ وهـذا كان يريد أن يكون زوجى ٠ الشـيخ عبد الصبور غانم ٠ شيخ البلد التى فيها عزبتى ٠٠ طلبنى بعد أن توفى زوجى ٠ كان يتصور أننى أطيق

الحياة كزوجة شيخ البلد فى تلك القرية التى لم يهتموا حتى بان يمر خط السكة الحديدية على مقربة منها !

وتعالى ضحكها ..

وجال بغرفة المكتب يحدق فى وجوه أصحاب الصور الأخرى المعلقة على حائطها ولمح على مائدة مجاورة للمكتب مجموعات مجلدة من مجلات مصورة .. كانت مجموعة منها مفتوحة على صورة كبيرة للأستاذ اسماعيل حلمى المحامى ..

ثم غادر المنزل بعد أن ترك لها مجموعة المجلات الانجليزية التى أحضرها معه ..!

وفى أثناء عودته الى المنزل كان يسائل نفسه «أيمكن أن تكون سميرة هانم فى حاجة الى مجلاته ولديها تلك المكتبة القيمة ؟»

وحاول وهو يسرع الخطى عائدا الى بيته أن يستعرض ما مر به ليلتئذ .. لقد عاش حلما رائعا .. ولكن .. ولكن خاطرا واحدا كان ينغص عليه .. حاول عبثا أن يتخلص منه .. الصورة الكبيرة المفتوحة لاسماعيل حلمى على غلاف تلك المجلة ! لاشك أنها مصادفة . مصادفة بحتة أن يقع بصره على تلك الصورة

بالذات . لم تقصد سمئة هانم اطلاقا أن تبرز تلك المجلة فى ذلك الوضع .. ربما كانت تقرأ شيئا آخرا ولم يتسع الوقت لاغلاق المجموعة المجلدة واعادتها الى مكانها بالمكتبة فبقيت تلك الصفحة مفتوحة تطل منها عينا اسماعيل حلمى ..

كان كل ما مر بهليلتئذ رائعا الا .. الا هذا الخاطر الذى كان يلاحقه .. بل يطارده ..

٥

تكرر تردده على منزل سميرة هانم حسنى ..

لم يعد يطيق أن يبعد عنها ، كلما رآها ازداد رغبة فى أن يبقى الى جانبها ، وكلما تركها ود لو عاد اليها .

ويبدو أن بعض زملائه الطلبة قد لاحظ صلته الجديدة بسميرة هانم لانه ذهب صباح ذات يوم الى المدرسة فوجد عنوانا محفورا على درج مكتبه بسن «البرجل» المدبب الى جانب اسمه

«بطرف الدكتور سمير حسني» ! وفهم طبعا ماقصده حافر العنوان !

ثار وأراد فى بادىء الأمر أن يشكو الى «الناظر» ولكن زميله عبد الحليم أسر فى أذنه

ــ انت مجنــون ٠٠ كيف تشــكو ؟ النــاس كلهم يتهامسون بهذه الحكاية ٠٠ ألا تعرف أهل الزقازيق ؟ أتذكر ؟ منــذ أســبوعين أو ثلاثة أوصلتك عــربتها من بيتنا الى بيتك ٠ كان ذلك فى العصر ٠ فى وضح النهار ٠ ولكن أهل البلد أذاعوا أن عربة سميرة هانم أوصلتك بعد منتصف الليل الى بيتها ٠٠٠ !

وكظم غيظه ٠ بدأ يترفع عن الجلوس مع زملائه الطلبة الذين يحاولون طول الاسبوع اقتصــاد بضعة قروش تمكنهم فى يوم العطلة من لعب «البلياردو» أو تناول بعض الحلوى فى المقهى الذى تعمل فيه «كليوبى» التى لاتعبأ بغزلهم وأحيانا لاتعنى برد تحياتهم ٠٠

فى عصر ذلك اليوم خــرج «هو» من المدرســة فى الموعد المعتاد ٠ وبينما كان الطلبة سائرين جمــاعات أقبلت عــربة ســميرة هانم من بعيد ٠ فلاحظ أن كل الأبصار قد اتجهت اليه ٠ وحده !

أراد أن يدير وجهه الى ناحية أخرى ٠ ولكن العربة وقفت الى جانبه تماما ٠ وسمع صــوت ســميرة يناديه

ـ تعال أوصلك

وركب الى جانب سميرة هانم رغم يقينه بأن البلدة كلها لن يكون لها حـديث بعـد ذلك الا عنهما · هى وهو

وصعدت العربة أولا الى (وابور النور) ثم عادت الى البلدة · وفى أثناء الطريق سألته

ـ متى تبدأ أجازتك ؟ ـ فأجابها

ـ بعد شهر تقريبا

ـ لم لاتقضى بعض هذه الاجازة عندى فى العزبة ·· انها قريبة من هنا وبيتى هنـاك فيه كل وسـائل الراحة ·

كانت العربة تعدو مسرعة فى الطـريق الزراعى بجوار ترعة «بحر مويس» بعيدا عن المنطقة المسكونة من المدينة ·

وكانت الشمس قد بدأت تغيب فى الافق البعيد · الذى ترامت حقوله الخضر الى مسافات لايحدها البصر ، وألقت سميرة برأسها الى مسند العربة الخلفى ، ثم زفرت نفسا حارا · كأنها أرادت أن تستريح بعد أن ركضت

شبوطا • طويلا • شاقا • وشعر «هو» بيدها تتحسس يده • وبأصابعها تتشبث بأصابعه كأنها تناديه • وتستعين به • وأدنت وجهها من وجهه كانت لاتزال تزفر أنفاسها الحارة • لقد أيقن اذ ذاك أن لهبا دفينا فى أحشائها يتلظى ••• وأنها تفكر فى •• فى •• أن تقبله • ولكنها جذبت يدها ومدتها الى بعض شعرات تدلت على جبينه فأعادتها الى مكانها فى رقة وربتت على وجنته • فعبس ! كان يتوقع ماهو أكثر من ذلك • وعندئذ قالت له وهى تقهر ضحكة جافة •

ـ لو أننى تزوجت فى سن السادسةعشر أو السابعة عشر كما كان يفعل أمهاتنا وجداتنا لكان ممكنا أن أرزق بولد فى سنك •• أحيانا تضحكنى عندما تتكلف رجولة كاملة قبل أوانها !

كان كل شىء حولهما صامتا •• اذ ذاك •• حتى صخب حوافر الجوادين الذى طالما دق الآذان عند عدو الغربة فى طرقات المدينة المرصوفة لم يعد الا صوتا مكتوما وهى ترتطم بالارض الزراعية التى كان المساجين فى سجن الزقازيق قد انتهوا من تمهيدها ورشها بماء بحر مويس ••

وكان أولئك المساجين قد أنجزوا لتوهم عملهم اليومي وأخذوا يسيرون صفوفا متراصة حول حراسهم الذين شهروا أسواطهم فى أيديهم ·

وتمتمت سميرة وهى تنظر الى صفوف المساجين الحزينة

ـ كم مظلوما بين هؤلاء لو وجد من يدافع عنه ويثبت براءته لما انتهى الى هذا المصير ! ـ وفهم «هو» ماترمى اليه فلم يرد ·

وعند عودتهما الى البلدة رأيا ازدحاما شديدا · فقد مر الأستاذ اسماعيل حلمى المحامى ومرشح المدينة في الانتخابات بسيارته

فوقفت سميرة في وسط العربة ومدت عنقها لترى الاستاذ اسماعيل وهو يبتعد بسيارته دون أن تعبأ بنظرات الدهشة التى كان يوجهها اليها المارة · والمتجمعون على أبواب الحوانيت التجارية !

ولما مرا بمنزل زميله عبد الحليم شاكر طلب اليها أن تسمح بايقاف العربة · فنظرت اليه باسمة وكأنها أدركت أنه غضب وسألته

ـ ألا تنوى العودة الى البيت ؟

ـ لا · شكرا · أود أن أذاكر مع عبد الحليم هذه الليلة

ولكنه لم يستطيع أن يستذكر شيئا ليلتئذ · فقد أطال التفكير فى سميرة هانم ··

حاول أن يكتشف سر هذه المرأة · ساءل نفسده مئات المرات عن شعورها نحوه ؟ انها ولاشك مهتمة به ولكن ·· هل تحول هذا الاهتمام الى ·· الى عاطفة كتلك العواطف التى قرأ عنها فى القصص · أو شاهدها على لوحة السينما · وعلى خشبة المسرح من فرق القاهرة التمثيلية التى كانت تزور الزقازيق بين كل حين وآخر أو سمع عنها من زملائه · عاطفة كعاطفة «كليوبى» اليونانية نحو فريد الصائغ ؟ أو كتلك العاطفة التى دفعت أخت زميله صبحى الى محاولة الانتحار من أجل عامل بصيدلية ؟ لم يشعر يوما بأنها تحبه · لم تمكنه من أن يثق بأنه ملأ فراغا فى حياتها ·· بأنه أصبح شيئا هاما فى هذه الحياة · كان يبدو دائما أنها مهمومة وأنها انما تطلق ضحكاتها لتخفى ذلك الهم · فاذا أرهقها التفكير فيما يشغلها فكرت فيه «هو» ·· لتلهو ·· اذا وجدته ·· أو لتقتل الوقت فى البحث عنه اذا لم تجده ··

٦

وانتهت امتحانات الثانوية العامة وانتقلت أسرته الى القاهرة استعدادا لالتحاقه بكلية الحقوق ·

كانت أخبار سميرة هانم قد انقطعت عنه · وخيل اليه أنها نسيته بانتقاله من الزقازيق · ولكنه فوجىء فى صباح ذات يوم من أيام شهر أغسطس برسالة صغيرة من زميله عبد الحليم يخبره بأن سـميرة هانم تدعوه وعبد الحليم لقضاء بضعة أيام فى عزبتها ، كان «هو» قد نجح فى امتحان الثانوية العامة رغم الفترة العصيبة التى مر بها فى الأيام التى سبقت دخوله الامتحان فرحب بالدعوة وصحب عبد الحليم فى السفر الى عزبة سميرة ·

لم يكن عاديا · وفى قرية صغيرة أن يقبل شابان للاقامة فى منزل سيدة شابة دون أن تربطهما صلة قرابة معقولة تبرر استضافتهما · ولذا رأى عبد الحليم أن يصطحب شقيقته سنية · وهى آنسة كانت اذ ذاك فى نحو الثامنة عشرة من عمرها ·

وقد احتفت بهم سميرة · كانت تنتهز كل فرصة لكى تبدى له أنها مازالت مهتمة به نفس الاهتمام الذى كانت تبديه قبل انتقاله الى القاهرة ·

ودعتهم في الليلة الأولى لاقامتهم في عـزبتها الى الطواف حول العزبة على ظهور الدواب · تردد «هو» في بادىء الامر في ركوب «الحمار» الذى أعـد تحت اشراف الشيخ عبد الصـبور غـانم الذى لم يكد يقع بصره عليه حتى تذكر صورته التى أرتها سميرة هانم له ليلة زارها للمرة الأولى في منزلها بالزقازيق وأخبرته ليلتئذ انه تقدم يوما بطلب الزواج منها ·· ولكن سميرة هانم ضحكت وقالت له عندما لاحظت تردده ·

ــ ليس عندنا غير هذه الوسيلة من وسائل النقل والمواصلات ·· حتى البريد لايصل الينا الا على ظهر حمار ! ــ والتفتت اذ ذاك الى الشيخ عبد الصبور وسألته في اهتمام ــ هل وصل بريد اليوم ياشيخ عبد الصبور؟ ــ ولاحظ «هو» أن الشيخ رمقه بنظرة فاحصة قبل أن يجيبها

ــ لا ·· سبق أن قلت لك ياســيدتى انه لابريد اليوم

وعندئذ عادت تقول له ناسية ان الشمس قد غربت وأنه لاينتظر أن يحمل البريد اليها شيئا بعد ذلك

ــ طيب · خذ بالك ·· أنا منتظرة حاجة مهمة

ولما ابتعدوا قليلا التفت خلفه فرأى الشيخ عبد الصبور يشيعهم بنفس تلك النظرة الفاحصة المريبة • هم بأن يصارحها بذلك الشعور ولكنه خشى أن تسخر منه فسكت • الا أنه استدرجها فى الحديث ففهم أن الشيخ عبد الصبور يشرف على ادارة العزبة • ويمسك لها حساباتها ويعينها على تحصيل المتآخر من قيمة الايجار المستحق لدى المستأجرين ورفع دعاوى الطرد ضد الممتنعين عن السداد من أولئك المستأجرين• يحدوه أمل •• أمل واحد هو رضاها به زوجا •

وفى اليوم التالى تناولوا افطارا ريفيا وتبادلوا حديثا قصيرا عن الانتخابات وماينتظر للمرشحين فيها • وفيما هم يتحدثون أقبل الشيخ عبد الصبور وهو يتعثر ويطرق الى الارض • ثم دنا من سميرة هانم وأعطاها بطاقة وهو يتمتم : الاستاذ اسماعيل حلمى • فبدا الاهتمام على وجهها وغادرت الغرفة مسرعة • وسمع وقع أقدامها وهى تهبط الدرج الى الحديقة ••!

وانتظروا عودتها طويلا ••

كانت سنية شقيقة زميله عبد الحليم قد لاحظت علامات الضجر التى بدت عليه فاقتربت منه حاملة

« الطاولة » فتحتها أمامه ثم رتبت « الأحجار » وهى تقول

ـ أجئتنا للفسحة أم للنكد ؟ العب معى الى أن تعود ‏‏‏‏٠٠ ـ ولم يبد عليه أنه سمع شيئا ٠ فمدت سنية يدها وأمسكت بكتفه ثم هزته كأنها توقظـه من نوم عميق وهى تصيح

ـ هو ! انت ! ألا تسمعنى ؟

فتكلف ابتســامة باردة ثم بدأ يلعب معهـا وهو لايزال يفكر فى سميرة وفى اسماعيل حلمى ٠٠٠

تبين اذ ذاك أنه ٠٠٠ أنه يغار منه ٠٠ من اسماعيل حلمى المحامى ٠٠ أحس بأن تلك الغيرة تسرى فى عروقه كسم زعاف ٠

كان يحرك «أحجاره» الســود بلا وعى وأدركت ســنية ذلك ٠ فكانت تصحح وضــع الأحجــار دون أن تحرجه ٠ بل كانت تتظاهر بأنها لاتلاحظ استغراقه فى أفكاره السود

انقضت مــدة أخــرى دون أن تعــود ســميرة ٠ واستمرت سنية تتظاهر بأنها تتابع اللعبة معه فى هدوء

دون أن تكشف اضطرابه • الى أن رأت العرق يتصبب بغزارة من جبينه فتوقفت عن اللعب وطلبت اليه أن ينتقل الى مقعد آخر في ركن الغـرفة ليتفادى تيـار الهواء البارد الذى كان يندفع من النـافذة المطلة على الحديقة ويدق ظهره دون أن يحس •• وهرولت سنية الى المطبخ ثم عادت بعـد قليل ومعها قدح من الشـاى قدمته اليه بنفسها • سـألت بضـع مـرات عن صحف الصباح •• لانها سمعته يسأل عنها مرة واحدة ! ومع ذلك كله فانه كان لايـزال يفـكر فى سـميرة و •• واسماعيل حلمى •• كانت سـنية ابنـة الثامنة عشر ربيعا • مشرقة • نضرة • لاتدخر وسـعا فى الاهتمام به • والحنو عليه • ولكنه لم يلتفت اليها • لم يحس بها • كان لايزال يفكر فى الأخرى • المرأة ذات الخمسة والثلاثين عاما •

وأخيرا • أقبلت سميرة • كان يبدو الاضـطراب عليها • وتبعها عبد الحليم الذى كان قد غاب عنهم منذ الصباح الباكر ليشاهد حديقة الفـواكه التى أخبره الشيخ عبد الصبور غانم أنه أنشأها قبل ذلك ببضعة أعوام ليزيد موارد سميرة هانم من العزبة

ومالت سنية على أذن شقيقها عبد الحليم تهمس • فجأة اتجه الى سميرة وهو يقول فى سخرية

ــ الحفاوة بنا فى هذه العزبة الجميلة فاقت ماكنا نحلم به • ولكننا يجب أن نعود الى الزقازيق الليلة ••

فسألته

ــ بهذه السرعة ؟ ــ وعندئذ أجابها عبد الحليم وهو يحدق فيها

ــ يبدو أن أعمالا هامة طارئة تستدعى اهتمامك •• ثم ان سنية أختى مرتبطة بموعد للاحتفال بعيد ميلاد صديقة عزيزة عليها ــ ونظرت سميرة اليه «هو» وتمتمت

ــ وأنت ؟ ــ فنقل بصره بين عبد الحليم وشقيقته وهو يهمس

ــ سأعود معهما ــ وتحرك متجها الى النافذة متفاديا النظر اليها كأنه يخشى أن يعدل عن قراره ويبقى ••

وأطل من النافذة على الطريق المؤدى الى الزقازيق •••

كانت سيارة الاستاذ اسماعيل حلمي تعدو مسرعة وقد أثارت خلفها سحابا كثيفا من تراب الطريق ..

لما سلكوا نفس الطريق في عودتهم كانت سيارات وعربات أخرى قد مـــرت من قبلهم . ولكن خيـــل اليه «هو» أن التراب الذى خلفته سيارة اسماعيل حلمي هو الذى يعفر الوجوه . ويظلم الدنيا أمام الأبصار !

٧

مر هذا الشريط من الذكريات في خيـــاله سريعا عندما فتح مجموعة الأوراق التى تركتهاله الآنسة ناهد حلمي . فلما أتم قراءتها تبين أنها مذكرات أبيها فى تاريخ يعود الى أكثر من عشر سنوات مضت . وهى التى يقدمها الى قراء هذه القصة

من مذكرات اسماعيل حلمى المحامى

١٦ يونيو

كنت أتناول العشاء الليلة فى منزل الدكتور على رأفت بالزيتون • انه زميـل لى منـذ أيام الدراسـة بالمدرسة التوفيقية

كانت حفلة رشـيقة • وفقت زوجته مارجـو • النمساوية فى اختيار أنواع الزهور التى وضعتها على المائدة • وفى قطـع التـانجو والفـالس التى أدارت

« أشرطتها » ·· ودهشت عندما لمحت بين المدعـوين سميرة هانم حسنى التى تملك «عزبة» فى مركز ههيا · والتى زرتها منذ نحو عشرة أعوام لاصارحها برغبتى فى شراء أرض مجاورة لعزبتها · ولمعرفة ما اذا كانت تود أن تشفع فيها

لم تتغير كثيرا · رغم أنهـا تخطت الأربعين فيما أرجح ! لاتزال الأنوثة من سمات صـوتها · وصمتها وحركتها وسكونها !

واشتدت دهشتى عندما انتهزت سميرة فرصة تفرق المدعوين فى الحديقة عقب الانتهـاء من تناول العشاء فاقتربت منى · ثم مدت يدها وصافحتنى مصافحة حارة وهى تقول :

ـ أهكذا ياإسماعيل بك تزورنى فى العزبة من عشر سنين وتروح تعد السنين الى اليوم !

فارتبكت قليلا ولكننى تداركت فقلت لها

ـ والله ياهانم · كنت مشغولا فى الانتخابات وفى نقل مكتبى للقاهرة

وتبينت توا أنها تريد أن تدفعنى أثناء الحديث الى التوغل قليلا فى الحديقة والابتعاد عن ضجة المدعوين

الذين كانوا محتشدين في الشرفة فتوقفت قليلا وقلت لها

ـ ياترى هل بيعت الثلاثون فدانا التى كانت بجانب عزبتك ياسميرة هانم ؟

ـ انتظرناك .. انتظرناك مدة طويلة . ولما لم تبد رغبتك في شرائها اشتراها الشيخ عبد الصبور غانم . شيخ البلد . ولكن ... ـ ولما ترددت سألتها

ـ ولكن ماذا ؟ ـ فأجابت بعد تفكير قصير

ـ يظهر انه أنفق على تحويلها الى حديقة موالح مبالغ تفوق طاقته . فرهنها للبنك العقارى . وقد علمت أنه تأخر فى سداد أقساط القرض وأن البنك على وشك نزع ملكيتها .

أردت أن أتبسط فى الحديث عن تلك الأرض .. ولكنني لاحظت أنها امتعضت . لم ترد قط أن يدور حديثنا كله عن ذلك . كان يبدو جليا أنها تريد التحدث عن شيء آخر .

لمحتنا مارجو صاحبة الدعوة فأشارت الى وهى ترفع كأسها لافهم أننى نسيت أن أتناول نصيبى من

الشراب الذى أعدته · ولكن سميرة جــذبتنى من يدى بحــركة رقيقة ودفعتني الى «كشك» صــغير فى أقصى الحديقة وفيما أنا أتقدم الى داخل «الكشك» التفتت الى فجأة وقالت لى وقد أدنت وجهها من وجهى :

ـ لم أعد أستطيع المقاومة يااسماعيل ·· أخفيت عنك طول هذه المدة · عشر ســنين · ولكننى لم أعــد أستطيع أن أقاوم ·· قل لى ·· ـ وشــعرت بأنفاسها وكأنها تتصاعد من لهب دفين فى أحشائها

وجفلت ·· كدت أتراجع وقد شعرت بأصــابعها تتقلص على يدى ·· ان سميرة التى تتقدم الى الخمسين لاتزال تحتفظ بالكثير من نضارتها · ثرية · مرموقة من الوسط الاجتماعى الذى تتألق فيه · الا أننى فوجئت بما بدأت تكشف لى عنه من عاطفة قاومتها عشر سنين كما ادعت ·· لست أدرى · هل كنت أفضل أن تحتفظ ببعض كبريائها وبالصورة التى كنت قد رسمتها لها فى خيالى ؟ أن تدعنى أحس بهــا دون أن تكشف عن تلك العاطفة الملتهبة ·

وعادت «مارجو» زوجة زميلى القديم الدكتور رأفت تبحث عنى فلمــا لم تجــدنى صاحت تنــادينى بلقبى كعادتها

ـ حلمى ٠٠ أين أنت ؟

وعندئذ التفتت سميرة الى وقالت

ـ دعها ٠ دعها تتعب بضع دقائق

ـ ولم ؟ ـ فأجابت فى أنة منهارة

ـ ولم تعبت أنا عشر سنين !

ذهلت لهذه الملاحظة

وسادت فترة صمت أخرى ٠٠ عادت تسألنى

ـ قل لى وحياتك ٠٠ كلمنى ٠ قل أى شىء ٠٠ ماذا فعلت فى هذه المدة التى لم آرك فيها ؟

ـ رشحت نفسى للمجلس وسقطت ٠٠ونقلت مكتبى من الزقازيق الى القاهرة

ولكنها قاطعتنى قائلة

ـ لا أقصد أن تحدثنى عن هذه الأمور ٠ اننىأعرفها لاننى كنت أتابع أخبارك ٠ كلمنى ٠٠ كلمنى عن أخبارك الشخصية ٠ أنا أعرف أنك متزوج ٠٠ ولكن ما أخبار مغامراتك ؟ لا أعتقد أن امرأة واحدة تستطيع أن تملأ فراغ حياتك ٠٠ انك نوع من الرجال لايعيش حياته الا مغامرة ـ فتمتمت

ـ من قال لك ؟ ـ وعندئذ بادرتنى

ـ عيناى . منذ وقع بصرى عليك للمرة الأولى فى ليلة رأس السنة بفندق مينا هاوس . ليلتئذ دخلت قاعة الطعـام مع خطيبى . وكنت أنت مدعـوا مع الدكتور رأفت . الذى اتضح أنه كان زميلا لخطيبى فى دراسة الطب . واجتمعنا حول مائدة واحـدة . كانت قاعـة الفندق الكبرى حاشدة بعدد كبير من سـيدات وفتيات المجتمع الجميلات . وكنت كلما أجلت بصرى حولى شعرت أن الجميع يحسدننى لاننى الى جانبك .

ـ ماهذه المبالغة ؟

ـ ماهذا التواضع ! لقد بدأت منذ تلك الليلة أجمع أخبارك . أخبار بنات جيرانك وتهافتهن عليك منذ كنت تسكن مع بعض أقاربك شقة بالدقى أثناء دراستك فى كلية الحقوق . وبعد تخرجك أخبار بعض بنات أعيان الشرقية اللاتى ظلت احداهن تؤجل اعلان خطبتها لابن عمها مرات عديدة أملا فى أن تفوز بك أنت . وفسخت الأخرى خطبتها بعد أن تبين خطيبها ـ وهو صـديق لك ـ أنها لاحديث لها معه الا عنك أنت .. أنت ! آه منك أنت !

ووجدتنى أقول لها

ـ ماهذه الأخبار الغريبة ياسميرة هانم ! يخيل الى أنك تهزئين !

ـ من يستطيع أن يهزأ بك ؟

واشتد ذهولى من تلك السيدة التى عـادت بى الى ذكريات أيام الدراسة . وصدر الشباب . وأحيتنى فى جو شاعرى حالم لم يعد يتاح لرجل مثلى تخطى الخمسين من عمره . وشاب معظم شعر رأسه !

ولكننى مع ذلك شعرت بزهو خفى ..

تنـاولت يدها . كانت قـد تثلجت تقـريبا . فوضعتها بين يدى ثم أطلت النظـر الى عينيها اللتين تبرقان على ضوء الشرفة الهابط من خلال أشجار الحديقة .. كانتا تبرقان بطبقة خفيفة من الدموع .. تبينت فجأة أننى عدت فعلا عشرين عاما .. ثلاثين عاما الى الوراء .. جلسة هادئة شعرية الى جانب امرأة عاشقة .. جسمان متلاصقان . نظـرات تتبادل القبل .. وارتجفت . خطر لى أن ألحق بصاحبة المنزل . ولكننى عدلت . شعرت برغبة فى أن أبقى .. خطر لى أن أعبث وأن ألهو كما كنت أفعل مع اللاتى كنت أصادفهن فى

السن التى شاءت سميرة أن تعيدنى اليها ٠٠ فقلت

ــ أتعــرفين ٠٠ ليــلة رأيتك للمــرة الأولى فى ميناهاوس ٠٠ خطرت لى فكرة عجيبة ٠ فكرة لم يسبق أن خطرت لى مع أية فتاة أخرى ٠ كنت مع خطيبك كما تذكرين ٠٠ خطر لى أن أخطفك وأهرب ٠٠ الى أين ؟ لا أدرى ٠ كانت الصحراء على بعد خطوات من الفندق ٠٠ خطر لى أن أهرب بك الى مكان بعيد ٠٠ لم أشأ أن أراك مع رجل آخر في تلك الليلة

ــ تلك الليلة ٠٠ فقط !

ــ تلك الليلة ٠٠٠

ــ وبعدها ؟

ــ بعدها ؟ لاأدرى ٠ ربما نسيتك ٠٠ انما فى تلك الليلة ظللت طول الوقت أفكر فى الطريقة التى تمكننى من أن أستأثر بك ٠ لنفسى ٠٠ لى أنا وحدى ٠٠

وأسرعت بعد ذلك فتقدمت الى الشرفة لانضم الى باقى المدعوين

٢٠ يونيو

تحدثت الى اليـوم بالتليفون فى المكتب ودعتنى لتناول العشاء فى منزلها

فاضطررت أن أقول لها فى لهجة لم تخل من غلظة

ـ دعوت زوجتى وابنتى الليلة ياسميرة هانم لتناول العشاء خارج البيت ثم لمشـاهدة قصـة باحـدى دور السينما ٠ ـ فعادت ترجونى قائلة

ـ ألا يمكنك أن تمـر ببيتى بضـع دقائق قبـل العشاء ؟ ـ فضحكت ثم قلت

ـ ياسلام ! تذكريننى بأمور كنت أجترىء عليها قبل عشرين أو ثلاثين عاما ٠ موعد قبل العشاء وموعد آخر بعد العشاء ٠ وثالث أحيانا بعـد الخـروج من السينما ٠ كل سن وله حكم ياسميرة هانم

فلما يئست من أجابتى لدعوتها سـألتنى عن دار السينما التى سأحضر عرض برنامجها ٠

كم دهشت عندما توجهت الى هناك فرأيت سميرة هانم جالسة بمفردها فى احدى المقاصير الجانبية !

لقد أثارت شفقتى !

٤ يوليو

حدث اليوم حادث غريب . فقد كنت خارجا من محكمة الجنح المستأنفة بعد الحضور فى احدى القضايا فلمحت سميرة هانم جالسة فى المقهى الذى يتوسط بهو «الخطى المفقودة» مع ذلك الرجل المعمم الذى أذكر أننى رأيته معها يوم زرتها فى عزبتها منذ عشرة أعوام والذى أخبرتنى أنه «شيخ البلد» وأنه يتولى الاشراف على أرضها أثناء غيابها فى القاهرة .

تظاهرت فى بادىء الأمر بأننى لم أرها وهممت بالخروج ولكن الرجل الذى كان معها عدا خلفى وهو ينادينى فاضطررت أن أتوقف . عندئذ قال لى وهو يشير الى حيث جلست سميرة

ـ سميرة هانم ... ـ وقبل أن يكمل جملته توجهت اليها . وحييتها . فقالت لى فى صوت مرتجف

ـ لم أدخل هذه المحكمة قط من قبل . حضرت اليوم لكى أراك . جلست منذ الصباح الباكر . وسط هذه الوجوه الغريبة . كلما صدر حكم بالبراءة . أو الادانة لم ينقطع الصوات والنواح من بعض هؤلاء

النسـوة اللاتي يحطن بي • والزغاريد والتهليل من البعض الآخر • لقد تضـاربن أكثر من مـرة • كادت احداهن تشتبك بي اذ ظنت أننى شامتة فى الحكم على ابنها بالسـجن •• حضرت لأراك ثم تتظاهر بأنك لم ترنى وتحاول الانصراف جريا ••

ولما سألتها عما تريد أجابتنى بأنها تريد أن تنجز لى صفقة شراء الثلاثين فدانا المجاورة لأرضها • وهمست فى صوت تعمدت ألا يسمعه الشيخ عبد الصبور مالك هـذه الأرض التى يتخذ البنك اجـراءات بيعها بالمزاد بأنها أبت شراء تلك الأرض مع رغبة الشيخ عبدالصبور الشديدة فى أن تشتريها هى لكيلا يشتريها غريب ••

بعد قليل غادرنا مقهى المحكمة الصغير واتجهنا الى باب المحكمة الكبير • فتقدمت سـميرة الى المقعد الذى خلف عجلة القيادة فى سيارتها الفخمة ثم مـدت يدها ففتحت الباب الآخر ودعتنى باشارة رشيقة الى الجلوس بجانبها

وجدتنى أتقدم الى ذلك المقعد وأغلق الباب خلفى كأننى فعلت ذلك معها من قبـل عشرات المرات • ولما تحركت السيارة كان الشيخ عبد الصبور لايزال واقفا

عند أسفل درج المحكمة ينظر الينا نظرات مريبة · ان لم أخطىء فهذا الرجل لايستريح الى ماأظهرته سميرة من تعلقها بى ··

فالتفت اليها أسألها

ــ الى أين ؟ ــ فأجابتنى وهى تلف وشاحها الأنيق حول عنقها

ــ أنت مدعو الى الغداء

ــ أين ؟

ــ فى الهــرم · اكتشفت مطعما منعــزلا لو أنك صارحتنى بما خطر لك ليلة التقينا لأول مرة من الرغبة فى أن تخطفنى لما ترددت فى أن أقترح عليك أن نهرب اليه ·

وقادت السيارة بسرعة

عــدت أدقق النظر اليها · تحــرك الوشاح من على عنقها فبدا ذلك العنق عاريا · لم أر أثرا للتجعد فيه · لم يضمر ويتهدل كما تضمر وتتهــدل أعنــاق اللاتى تخطين الخمسين لاهثات نحو الستين · وصدرها · كان محتفظا بالكثير من فتنته · كان صدرا شابا ·

ويداها ـ عجبا ! ان يديها اللتين وضعتهما بخفة على عجلة القيادة كانتا فى بادىء الأمر مختفيتين تحت قفازها فخيل الى أنها أرادت أن تستر شيئا ما · شيئا تخشى أن أراه

واستمرت سميرة تقود سيارتها فى سرعة هائلة · منطلقة فى طريق الهرم

وفجأة · دوى صوت مرتفع · وأوقفت سميرة السيارة · ثم قفزت منها لترى ماحدث بها ··

كانت احدى العجلات قد ثقبت وفى حركة آلية خلعت قفازها الأبيض

ولمحت اذ ذاك يدها ·· كانتا يدى شابة فى الثلاثين ·· بل فى الخامسة والعشرين ··!

وركعت سميرة تحت السيارة ·· أشارت الى أن أساعدها فى خلع العجلة التى ثقب اطارها ووضع العجلة الاحتياطية · دهشت اذ ذاك من نشاطها العجيب ··

لقد وفقت تماما فى ارغامى على العمل فى السيارة كأننى عدت فعلا ثلاثين أو عشرين عاما الى الوراء ··

وتصبب العرق من جبينينا ·· كانت يداى تمسان يديها أحيانا أثناء اشتراكنا فى الحـركة ·· فيرتجف جسمي كما كان يرتجف منذ عشرين عاما ·· وكانت نظراتها تلتقى بنظراتى تحت السـيارة ·· فنتوقف كلانا برهـة ·· ويخيـل الى آن شـفتيها تدنوان من شـفتي وأنها ستلتقى فى قبلة · ولكن سرعان ماكنت أراها ترفع يدها الى جبينها فتزيح عنه الشـعر المتهدل وتعود الى استئناف العمل ·· حتى انتهينا ··

كان التعب قد نال منا نحن الاثنين · فاستلقينا على حافة الحقل القريب منا

لم تكن تفصلها عني الا مسافة قريبة ··

كانت لاتـزال شـــابة ·· بحثت اذ ذاك عـن التجعدات التى خيل الى أننى لاحظتها ليلة تناولنا العشاء سويا فى منزل الدكتور رأفت فلم أجدها ·· لقد اختفت ·· اختفت تماما ··

ان سميرة لم تجد من يحبهـا حتى تخطت الخامسة والأربعين ·· لم تيـأس · لم يحترق شـبابها باللهب الدفين فى أحشائها ·· ظلت تحلم بالرجل الذى يبادلها الحب · واستطاعت أن تحتفظ له · بشبابها · وأنوثتها ·

وفتنتها طيلة تلك الأعوام ٠ وسـادت فترة صمت ٠ تبادلت أثناءه نظرات العينين حديثا طـويلا ٠ ونمت زفـرات الصـدرين عن اللهب الدفين فيهما ٠ فجـأة تنبهت الى أننى انسقت مع سـميرة ٠ أننى أنـزلق فى طريق لاأدرى نهايته ٠٠ ومرت ابنتى ٠٠ بخاطرى ٠٠ ثم تذكرت زوجتى ٠٠

ماذا يمكن أن يحدث لو مر قريب ٠ أو موكل ٠ أو ناخب فى دائرتى الانتخابية ٠ ورآنى فى ذلك الوضع الذى لايليق حتى بالمراهقين ؟

أحسست بيدى تتثلجان ٠ وبأصابعى تتقلص ٠٠

ووجدتنى أهم بالنهوض وأنا أقول

ـ أما كان من الافضل أن نحضر الشيخ عبد الصبور لكى ننهى حكاية الأرض ٠٠ عندى مبلغ ادخـرته من عملى فى المحاماة أخشى أن تلتهمه المعارك الانتخابية قبل أن أضمن مستقبل ٠٠

وترددت فى أن أفصح ٠ فحدقت فى وسـألتنى

ـ مستقبل من ؟ ـ وتريثت قليلا ثم همست

ـ ناهد ٠ ناهد ابنتى ٠ و ٠٠ زوجتى ٠

فنظرت الى نظرة طويلة · ثم هـزت رأسها هـزة خفيفة وقالت لى وهى تستجمع قواها

ـ حاضر ـ وتجاهلت تأثرها فعدت أسألها

ـ أأستطيع الاعتماد عليك ؟

عندئذ زفرت نفسا حـارا وقالت لى فى صـوت متقطع وجسمها يتلوى كأن اللهب الدفين فى أحشائها يشويها

ـ اعتمد على يااسماعيل ··

ثم أشاحت بوجهها ·· وفهمت أنها كانت تبكى ··

أحس بأننى أعذب هذه المرأة · ولكن ماذا أفعل ؟ اننى أحب زوجتى وأحـرص عـلى ألا ألوث سـمعة ابنتى

٢٢ يوليو

لقد جنت سميرة ولاشك !

كنت جالسا الليلة أتناول العشاء في مطعم بمطاعم شارع ألفى فرأيتها داخلة تترنح كأنها ثملة ! ولم يكد

بصرها يقع على حتى توقفت وسط قاعة المطعم الكبرى ثم وجهت الى نظرة طويلة تناديني ..

لم أجد مناصا من أن أترك من معى وأن أتجه اليها ..

كم أخطأت ليلة خدعتها فأفهمتها أننى تمنيت اختطافها ذات ليلة والهرب معها !

ان النساء يوحين الينا أن نخدعهن . فاذا فعلنا تشبثن بنا وأصبح من العسير أن نتخلص منهن ! سألتها وأنا أحاول أن أنتحى بها جانبا

ـ ماذا جرى لك حتى تناديني أمام الناس أجمعين؟ أنسيت أننى زوج وأب ؟

فسكتت قليلا ثم سألتنى

ـ ألا أستطيع أن أتحدث اليك قليلا بضع دقائق ؟

اضطررت أن أجلس الى جانبها . ولكننى أسرعت ففاتحتها فى أمر الثلاثين فدانا ورغبتى فى شرائها .. تعمدت ذلك محاولا أن أمكنها من الحديث عن شىء آخر أحسست أنها أرادت أن تفتحه عند لقائنا الاول والأخير ...

لاشك أنها تألمت ·· بل خيل الى أننى طعنتها فى صميم كبريائها فغادرت المطعم وهى واجمة

٢٨ يوليو

تلقيت منها رسالة أرفقها بهذه المذكرات :

«سيدى الاستاذ اسماعيل حلمى

لم أستطع أن أقاوم الرغبة التى تجيش فى صدرى والتى تلح على فى أن أكتب اليك · اننى أحس كأن هذه الكلمات قطع من اللهب تشتعل فى صدرى ·· فى أعماق صدرى ·· وأننى ان لم أكتب اليك · ان لم أخرج هذه الكلمات فاننى سأحترق !

لقد احتملت هذا اللهب الدفين فى صـــدرى نحو عشرين عاما · استعنت ببقية كبرياء لكى أقاوم تلك الرغبة الملحة فى أن أكتب اليك ·· ولكن تلك البقية· احترقت ·· لم أعد أحس منها الا بجمر لايكاد يومض حتى ينطفىء فى ضلوعى ·· فى ضلوع بقية امرأة ··

كان يمكن أن أبدأ هــذه الرســالة بقــولى اننى أكرهك · انك أسأت الى أكبر اساءة يمكن أن يوجهها

رجل الى امرأة • ولكننى مع ذلك أقول لك اننى أحبك
•• أجل ! أحبك •• لا اليوم •• ولا الامس القريب
أو البعيد • أحبك منذ عرفت أننى فتاة لها قلب يمكن
أن يخفق • لاأذكر متى بدأت أحبك •• ولكننى أذكر
تماما أننى أحببتك قبل أن يقع بصرى عليك •• لم
أصارحك بذلك من قبل •• ولكننى أحببت صوتك عندما
سمعتك تتحدث مع ناظرة المدرسة التى كنت أتلقى فيها
دراستى الثانوية وكنت قد حضرت لتوصى على احدى
قريباتك من زميلاتى • وأحببت ذلك الصوت عندما
دعتنى تلك الزميلة ذات يوم لحضور حفل انتخابى أقمته
واستمعت فيه الى خطاب ألقيته •• وقد رجوت زميلتى
يومئذ أن تعطينى صورة لك • ظللت أحتفظ بها حتى
اليوم •• أحببتك اذن قبل أن يقدمنى خطيبى اليك فى
فندق «ميناهاوس» •

كنت أصعد شرفة الفندق فلمحتك مع الدكتور
رأفت وزوجته • كنت أنت جالسا على مقعد جلدى ضخم
فقدمونى اليك ولكنك لم تبد اهتماما بى •• ولما
تجاذبنا حديثا قصيرا نهضت ثم مددت يدك الى وانصرفت •
كان انصرافك مفاجئا كأنك لم ترد البقاء • فشعرت
بألم جرح قلبى • منذ تلك اللحظة لم يلتئم ذلك

الجرح .. تصور .. كم عاما انقضى .. لقد تزوجت بعد ذلك ورزقت بطفل . وتوفى الطفل . ثم لحق به الزوج . ولكننى لم أستطع أن أحب غيرك

عدت الى منزلى ليلتئذ وأنا أفكر فيك .. كنت عندما اقتربت منك قد دققت النظر الى عينيك . وجبينك . ويديك . الى جلد ساعدك المختفى تحت «كم» قميصك الابيض . الى جلستك وقد وضعت ساقك اليمنى على ساقك اليسرى . الى المنديل الأبيض المتدلى فى اهمال من ذلك الكم . وملأت رئتى من أريج الدخان الذى كنت تنفثه من غليونك . الى بعض شعرات بيض لم أدر لم حاولت الاختفاء مع أنها كانت تزيد شبابك فتنة وروعة . كل ذلك قد يبدو عاديا فى نظر امرأة أخرى .. ولكننى أيقنت توا انك رجلى . ورجلى الأوحد .. ان خيال الطفولة الذى راودنى عندما وقع بصرى عليك من قبل وأنا بعد طالبة وأحلامى عن رجل المستقبل . لم تخدعنى .

كنت فتاة طيبة .. غادرت المدرسة عقب اعلان خطبتى .. لم أعرف قبلك رجلا آخر .. ولو انك ليلتئذ طلبت الى أن أنتظر فى الخارج لكى تلحق بى لأطعت

ولكنك لم تفعل !

وانقضت أعوام أخرى . كنت ألتمس رؤيتك . وسماع صوتك . والاقتراب منك . فى كل مناسبة . كنت أقرأ أحيانا وأنا فى «العزبة» انك ستلقى محاضرة عن موضوع ما فى احدى جمعيات القاهرة ..

كم كنت مغرما قبل زواجك بالقاء تلك المحاضرات! فكنت لا أتردد عن السفر .. وأجلس للاستماع اليـك ورؤيتك . وأصفق مع المصفقين . كثيرا ماكنت أتلفت حولى فلا أجد امرأة غيرى . لم يكن عاديا فى ذلك الوقت أن تقدم سيدة شابة على سماع محاضرة محام شاب فى موضوع قد لاتكون لها به دراية !

كنت فى كل مرة أحس بأن حبى لك يعظم وحاجتى اليك تشتد

أحبك وأحتاج اليك . أريد أن أعترف لك هنا بكل شىء . أريد أن أصارحك بأننى أحيانا عنـدما كانت تثور فى صدرى بقية باقية من كرامة المرأة الجريحة كنت أفكر فى أن أخونك . أن أخون «حبك» .. لم يخطر لى من قبل أن أخون زوجى كما خطر لى أن أخونك أنت .. لاننى أحببتك أنت دون غيرك !

خطر لى أن أخونك ولكننى لم أجرؤ ! اننى واثقة من أنك لاتكاد تفهم ماأقوله لانك لم تعن يوما بالاهتمام بشخص آخر كما عنيت أنا بك .

اسخر منى كما تشاء ولكننى مصرة على أن أعترف لك بكل شىء ٠٠ هل تدرى مع من خطر لى أن أخـونك منذ عشرة أعوام ؟ مع طفل لايكاد يتجاوز العشرين من عمره ٠٠ تركته يعتقد أنني كنت أحبه ٠ كنت أدعوه أحيانا للتريض فى حديقتي والاشتراك معى فى مطالعة طائفة من المجلات ٠ دعوته ذات مرة الى عزبتى كمـا دعوته الى بعض النزهات الخلوية التى كنت أخرج اليها بعد الغروب في الزقازيق ٠ كنت ألهو به ٠ قلت لك اننى أعترف ٠ لم أتعد ذلك الحد من الخيانة ٠ ومع ذلك كانت هذه الرغبة فى خيانتك تلتهب فى صدرى كلما أمعنت أنت فى اهمالى ٠ حدث أكثر من مرة أن رأيتك فى بعض المطاعم جالسا خلف احدى واجهاتها الزجاجية معزوجتك أو مع بعض أصدقائك وزوجاتهم فانتظرت فى سيارتى على قارعة الطريق حتى انتهيت أنت من تناول الطعام وغادرت المطعم ٠ كم من مرة خطر لى أن أترك سيارتى وأن أعدو خلفك لأناديك ٠٠ ولكننى فى كل مرة ترددت ٠٠ أو جبنت ٠٠ فعدلت ٠

أما المرات التى كنت فيها أغادر العزبة الى القاهرة لايحدونى الا أمل واحد · أمل غامض فى أن أراك كما قلت لك من بعيد جالسا ــ حتى ولو مع زوجتك ــ فى مطعم أو فى مقصورة مسرح أو دار من دور السينما فلايمكنك أن تتصور أى شعور طاغ جبار كان يدفعنى الى السفر · الى الرحيل نحوك ولاجلك · الرحيل اليك لم تكن فى الوجود قوة تستطيع أن تثنينى عن القيام به أو عن ارجائه ·· كنت اذ ذاك كشهب يندفع فى سماء غامضة نحو الكوكب الذى سينفجر ويتلاشى عند ارتطامه به ومع ذلك فانه يندفع نحوه بقوة خفية ·

ولكن ماذا فعلت أنت فى مقابل ذلك كله ؟ كنت أسمع عنك متابعتك لغرامياتك المتكررة · المتجددة · ومع ذلك فاننى أعتقد بأن تلك العلاقات الغرامية لم تكن بالنسبة لك الا أمرا ثانويا ·· عارضا ·· من يدرى ؟

ربما كنت تفضل ذلك النوع من النسوة اللاتى خلت أحشاؤهن من لهب دفين يحرقهن من أجل رجل ·· واحد !

انى أستعيد الآن ذكرى الليلة التى تناولنا فيها

العشاء معا فى منزل الدكتور على رأفت بالزيتون • كنت جالسة فى المقعد المواجه لك وكنت أحاول أن أستشف معنى • أى معنى من نظراتك فلم أوفق •

كانت تلك النظرات أشبه بالستائر التى تسدل على مقــدمة خشبات المســارح لتخفيها عن الجمهور والتى لاينتبه أحد الى رفعها الا بعد ثلاث دقات ســحرية ••! هل تدرى متى سمعت تلك الدقات الثــلاث ؟ ســمعتها عنــدما تناولت يدى بين يديك وأخبرتنى بأنك فكرت ذات ليلة فى أن تختطفنى وتهرب !

لعلك تذكر تلك الليلة • لقد شرت الجميع وتعالى ضحكهم وصخبهم وجاريتهم أنت فى ذلك • أما أنا فلم أفعل •• خشيت أشياء كثيرة •• خشيت أن أغضبك • فقد لايرضيك أن أشرب وخشيت أن أفقد وعيى فلاأقوى على أن أخفى عن الناس ماحاولت أن أخفيه عن •• عن عــلاقتى بك •• وهى عــلاقة يغضبك أن يعــلم بهــا أحد •••

ومع ذلك • كم كنت ظمأى ليلتئذ !

لازلت ظمأى ••

ولكن •• هل سأظل ظمأى ؟ هل أموت ظمأى ؟•

٢٤ أغسطس

كيف النجاة من هذه المرأة ؟

أرسلت لى اليوم خطابا آخر لم يزد على هذه الكلمات (أحبك ٠٠ لازلت أحبك)

ماذا أفعل ؟ أصبحت أخشاها وأحسب حسابا عسيرا لعاقبة تهورها

ومع ذلك فقد أكد لى اليوم عميل من عملاء مكتبى وهو عضو من أهم أعضاء مجلس محافظة الشرقية بأن الثلاثين فدانا المجاورة لعزبة سميرة صفقة نادرة ونصحنى بألا أدعها تفلت من يدى

أريد أن أتصل بها لاحدثها عن رغبتى فى اتمام تلك الصفقة ٠ ولكننى أخشى ٠٠ انها لاتريد أن تتحدث قط الا عن ٠٠ عن الحب !

٨

عند هذا الحد انتهت يوميات الأستاذ اسماعيل حلمى فى تاريخ يعود الى ماقبل أكثر من عشرة أعوام

وحاول «هو» أن يتبين من مجموعة الأوراق التى أودعتها لديه الآنسة ناهد حلمى مصير تلك العلاقة الغريبة التى كانت بين أبيها وسميرة .. لم يفكر عندما انتهى من قراءة اليوميات فى سر تلك الجناية التى راح ضحيتها ذلك المحامى الذى كان اسمه يدوى فى الأوساط القضائية . والذى لمع نجمه فى الحياة السياسية . وهو السر الذى أقبلت ناهد حلمى لكى يعينها على كشفه . لم يخطر له أن يستشف من تلك الأوراق شخصية الجانى الذى أردى اسماعيل حلمى قتيلا . وأن يقف الى جانب ابنة القتيل لكى تثأر لدم أبيها .. أصبح كل مايشغل تفكيره شريط من ذكريات انقضت عليها أعوام طويلة .. عشرون عاما .. ذكريات الأيام التى تلقى فيها دراسته الثانوية بالزقازيق .. لقاءاته بسميرة .. فى منزلها .. شجرة التوت وشجرة الجميز تحرسان بابها .. المقعد المختفى تحت «تكعيبة» العنب فى حديقتها .. النزهة فى عربتها خارج المدينة فى الطريق الزراعى الذى يمهده المساجين تحت سياط حراسهم .. كان قد خيل اليه أن الزمن قد محا تلك الذكريات . ولكنه أحس بالدم يغلى فى عروقه .. لم ينتبه الى بضع قصاصات من صحف كانت

لاتزال بين مجموعة الأوراق التى أودعتها ناهد لديه ··· خطر له أن يغلق يوميات اسماعيل حلمى ·· أن يبعدها عنه ·· ولكنه لم يستطع ·· بيد مرتجفة عـاد فأمسك بهـا يبحث عن ·· عن فقرة معينة منهـا نقلها صاحب اليوميات من رسالة بعثت سميرة بها اليه فى شهر يوليو من آخر أعوام حياته فى الزقازيق · الفقرة التى صارحته فيها بأنها خطر لها أن تخـونه ·· «مع طفل لايكاد يتجاوز العشرين من عمره ·· تركته يتخيل أننى كنت أحبه ·· كنت أدعوه أحيانا الى بيتى ودعوته ذات مرة الى عزبتى · كما دعوته الى بعض النزهات الخلوية ·· كنت ألهو به ··» ·· لقد كتبت سميرة ذلك ولم تكد تنقضى بضعة أسابيع على تلك الذكريات التى كان يخيل اليه «هو» أنها ذكريات عـزيزة لفترة دقيقة من فجر حياته ·· وتقلصت أنامله على الصفحة التى تضمنت كلمات سميرة ·· أعاد قراءتها مرات ·· كان فى كل مرة يحس بأن سياطا تهوى على جلده تكاد تمـزقه · ولكنه لم يقو على أن يبعد بصره عن رسالة سميرة ··

وعاد شريط الذكريات يمر فى خياله ·· وعادت السياط تمزق جلده ·· هل أصبح سجين تلك الذكريات؟ أحس بأن الدماء قد اشتد غليانها فى عروقه ·· وخشى

أن يكون اللهب الذى أشعله فى أحشائه لقاؤه بسميرة قبل عشرين عاما والذى خيل اليه أنه خمد قد ومض بعد تلك السنين الطويلة ٠٠ ولكنه استجمع قواه ٠٠ وتساءل فى حيرة ٠ هل كان قد أحبها حقيقة حبا كذلك الذى قرأ عنه وكتب عنه فى القصص التى ينشرها على الناس ؟ هل خدع نفسه عندما تناساها فعادت هذه اليوميات تشعل ذلك الحب الذى ظل مختفيا تحت رماد اللهب الدفين ؟

واستجمع قواه ليبعد يوميات المرحوم اسماعيل حلمي عن بصره ٠٠ وعثر فى المظروف الكبير الذى أودعته ناهد لديه على بضع قصاصات عن أعداد مختلفة من صحف مختلفة ٠ ففى قصاصة خبر من مراسل الصحيفة فى الزقازيق :

اغتيال محام كبير

«حدثت أمس حادثة قتل غريبة فى بلدة «هريه» من أعمال مركز ههيا ذهب ضحيتها الاستاذ اسماعيل حلمى المحامى وعضو مجلس الأمة الأسبق اذ اغتيل رميا بالرصاص فى الساعة الرابعة من فجر الأمس وقد

أخطرت النيابة والمحافظة بالحادثة فانتقل الى محلها وكيل نيابة ههيا ولحق به رئيس النيابة ومدير الأمن وظل التحقيق مستمرا حتى كتابة هذه السطور . لم يقبض على أحد وان كانت الأقاويل والاشاعات كثيرة حول الفاعل والدافع الذى دفعه الى ارتكاب جنايته . وقد اتصل بنا ان القتيل كان قد وصل فى مساء اليوم السابق الى هرية لاتمام صفقة خاصة بشراء أطيان معروضة للبيع بالمزاد بناء على طلب البنك العقارى وانه استيقظ فى تلك الساعة المبكرة وحمل بندقيته وذهب للصيد وقد أرشده شيخ البلد المدعو عبد الصبور غانم الى بركة قريبة من بلدة اكياد لصيد البط وشهد شيخ البلد بأن القتيل أبى أن يصحبه أحد الى الصيد ولذا يشك المحققون فى أنه ربما كانت الحادثة قد حدثت قضاء وقدرا بانطلاق رصاصة من البندقية أصابت المحامى القتيل» .

وفى قصاصة أخرى منتزعة من صحيفة أخرى خبر :

«مقتل نائب سابق»

«اهتم مكتب النائب العام بحادثة مصرع المرحوم الاستاذ اسماعيل حلمى المحامى المعروف وأحد أعضاء

مجلس الأمة السابقين والتى أشرنا اليها قبل ذلك وقد طلب من رئيس نيابة الزقازيق أن يوافيه بما وصل اليه التحقيق أولا بأول

وقد علمنا أن المحققين كانوا قد حصروا شبهتهم فى الشيخ عبد الصبور غانم شيخ البلد الذى كانت أطيانه قد نزعت ملكيتها وعرضت للبيع فى المزاد العلنى . وهى الأطيان التى ثبت من التحقيق أن القتيل غادر القاهرة وسافر الى هريه خصيصا لاتمام صفقة شرائها وقد صدر أمر النيابة بحبس شيخ البلد احتياطيا على ذمة التحقيق ولكن المتهم عارض فى الأمر الصادر بحبسه أمام قاضى محكمة ههيا الجزئية فأمر بالافراج عنه بلا كفالة بعد أن ثبت أنه كان موجودا فى مكان آخر وقت وقوع الحادثة وأنه كان يسعى فى بيع الأطيان المنزوعة ملكيتها ليتخلص من الديون المتراكمة عليها .. واستشهد على ذلك بطالب يدعى عبد الحليم شاكر وبآخر يمت بصلة قرابة الى مأمور المركز .»

ولما انتهى «هو» من قراءة هذه القصاصات استرسل فى تفكير عميق . أكثر من شبهة تحيط بالشيخ عبد الصبور غانم . ولكن هذه الشبهات لم ترق الى مرتبة الأدلة . فحفظ التحقيق ضده لعدم كفاية هذه الأدلة ..

ولم تكن هذه اليوميات التى كتبها المرحوم اسماعيل حلمى تحت يد المحققين ولاشك ·· لم تقدمها زوجته ·· هل عثرت عليها بعد قتله و بعد حفظ التحقيق ؟·· لقد استبعد «هو» هذا الخاطر ورجح أنها لم تشأ أن تقدمها الى المحققين لانها تكشف عن نواح من حياة زوجها تجرح كبرياءها ·· لقاءاته مع سميرة ·· هذه المغامرات الغرامية التي عاشها وتحدث الناس عنها دون أن تدرى هي عنها شيئا ·· لقد علم من ناهد أن والدتها توفيت منذ عامين · ولكنه تذكر بأنه سمع أنها تزوجت بعد قتل زوجها ببضعة شهور · كل ما علمه عن ذلك أنها تزوجت أحد مفتشي وزارة الداخلية · وانها بررت ذلك بأنها لم ترث عن زوجها مايعينها على تربية ابنتها · فقد اتضح أن اسماعيل حلمي بدد أرباحه من عمله فى الحملات الانتخابية · وفي حياة البذخ التى كان يحياها بين القاهرة والزقازيق ·· و ·· وفي هذه الجوانب التى كانت خافية عن الناس من تلك الحياة فكشفت يومياته عنها ··

وبدأ بصيص من نور يضيء أمامه «هو» سر تلك المأساة ·· ولكن ·· من هو ذلك الزوج الذى حل محل المحامى النائب القتيل ؟

ودخــل أحــد موظفى مكتبــه اذ ذاك يخبره بأن الآنسة ناهد حلمى ترغب فى مقابلته · فلم يكد يقابلها حتى خطر له فجأة أن يسألها

ــ قبل أن نتحدث فى سر هــذه الجناية التى راح المرحــوم والدك ضحيتها أود أن أعــرف · لم فضلت والدتك أن تبقى هذه اليوميات طى الكتمان طيلة هذه المدة ؟ لم لم تعمل هى على كشف سر قتل زوجها وتركت هذه المهمة لك أنت ؟

فأطرقت ناهد الى الأرض · وبعد تفكير قصير قالت فى ارتباك

ــ ربما ·· ربما ندمت على أنها لم تثأر لدم أبى وخطر لها بعد أن نلت من التعليم قدرا لم تنله هى أننى قد أكون أقدر على ذلك منها

ــ ولكنك تعلمين ولاشك أنه لاسبيل الى الثأر من قاتل أبيــك · حتى لو جمعنا مايكفى من الادلة عليــه فقد لايمكن اقامة الدعوى عليه لاننى أخشى أن تكون قد سقطت بمضى المدة ·· كما أن الناس لن يصدقوا أن المرحــومة والدتك قد حجبت هــذه اليوميات عن المحققين حرصا على سمعة أبيك ··

ــ لم حجبتها اذن ؟

ـ لانها لم تشأ أن يعلم الناس أنها كانت زوجة مخدوعة ٠٠ ـ وبعد فترة صمت عاد يسألها فى صوت خافت

ـ ألم تتزوج قبل انقضاء عام على وفاة أبيك ؟

ـ أجل ٠ فقد اتضح لها أن تركة المرحوم أبى التى قدرها الناس بعشرات الآلاف لم تكن تكفى لمواجهة ضرورات حياتها ونفقات تعليمى ٠٠

ـ أرجو أن تكون والدتك قد وفقت فى اختيار ٠٠ فقاطعته

ـ عمى شاكر زهدى بذل أقصى جهده فى رعاية أمى ٠ وفى العناية بتعليمى ٠ لم أحس قط بأن عمى شاكر زوج أم ـ وأطرق وهو يهمس كأنه يحدث نفسه

ـ شاكر ٠٠ زهدى ! ـ ثم نظر اليها مستفسرا ـ أعرف هذا الاسم ـ فأجابت وهى لاتزال تتظاهر بالهدوء

ـ ربما ٠ كان مأمورا لمركز الزقازيق منذ عشرين عاما و ٠٠٠ ـ وقفز واقفا ثم دار حول مكتبه وجلس على المقعد المواجه لها وهو يصيح

ـ شاكر زهـدى • والد عبد الحليم شـاكر زميل الدراسة فى مدرسة الزقازيق •• ـ وأخفت ابتسامة ثم قالت

ـ هو نفسه • رقى بعد ذلك وكيلا لاحدى محافظات الوجه القبلى • حيث توفيت زوجته والدة عبد الحليم • فلما رقى مفتشا بوزارة الداخلية سكن الى جوارنا فى المنيل ••

وساد صمت • تبادل أثناء «هو» وناهـد بضـع نظرات • كان كل منهما يريد أن يفضى الى الآخر بأشياء كثيرة دون أن يجرؤ • كانت الشفاه تتحرك لتنطق ولكن الكلمات لاتلبث أن تحتبس • الزفرات وحـدها كانت تعبر عما يجول بخاطريهما ••

وقطع «هو» هذا الصمت عنـدما قال لها وهو يهز رأسه

ـ بقى لدى سؤال واحد كنت أود أن أوجهه اليك • ولكن يبدو أننى لم أعد فى حاجة الى ذلك ـ وانتظرت أن يوضح مايقصد فلما لم يفعل سألته

ـ وماهو ؟

ـ كنت فى حيرة ۰ لم اخترتنى ۰ أنا دون غيرى للاطلاع على هذه اليوميات ۰ وللقيام بهذه المهمة الدقيقة ؟

فارتجفت أهدابها ثم تمتمت وهى تتظاهر بالتجلد

ـ أية غرابة فى ذلك ۰ ألست كاتب قصة ؟ ألم تمارس فى مكتبك من قبل أمثال هذه القضايا وتعالج أمثال هذه المآسى ؟

فحدق فى عينيها ثم وضع يده على كتفها وهو يقول مبتسما

ـ قلت لك أننى «كنت» أود توجيه هذا السؤال اليك ۰ و «كنت» فى حيرة من أمر قدومك لتسليم هذه اليوميات الى ۰۰۰

وعادت تنتظر أن يتم جملته ۰ فلما طال انتظارها سألته وهى تبذل جهدا فى تمالك قواها

ـ وبعد ۰۰۰ ـ وعندئذ اقترب منها وضغط بيده على كتفها وهو يقول فى لهجة لم تخل من استدراج

ـ وبعد ۰۰ فاننى أود الآن أن أعرف أخبار عبد الحليم ۰۰ عبد الحليم شاكر ۰ زميل طفولتى وصدر

شبابى ••• لقد انقطعت أخباره عنى منذ مدة طويلة
••• ـ فأجابت وقد امتقع وجهها

ـ تخرج فى كليـة الزراعة وسـافر فى بعثة الى الخارج ولم يعد الا منذ بضعة شهور • أنه يعمـل مدرسا فى احدى جامعات الأقاليم

ـ تزوج ؟

ـ لا •• ما علاقة عبد الحليم بهذه اليوميات ؟

فضحك ثم قال وهو يربت على كتفها

ـ أكاد أراه هو نفسه يقدمها الى • ويضع خطوطا حمراء تحت بعض فقراتها ويبذل أقصى جهده ليلفت انتباهى اليها •• أتودين أن تزعمى أن عبد الحليم لم يحدثك عنى ؟

فنهضت واقفة ثم قالت وقد اشتد امتقاع وجهها

ـ تحدثنا عنك أحيانا

ـ بأية مناسبة ؟

ـ بمناسبة صدور كتاب لك • أو اذاعة حديث • أو نشر خبر عن قضية ترافعت فيها • وبمناسبة ••

ـ وبمناسبة ماورد فى هذه اليوميات عن ...

ـ عمن ؟

ـ عن سميرة ... سميرة حسنى .

ـ ربما . عندما سمعنا بخبر موتها . ـ وكانت ناهد اذ ذاك لاتزال تخطو بضع خطى قصيرة فى الغرفة فتوقفت وحدقت فى عينيه وهى تتابع كلماتها ـ لقد علمت طبعا بخبر موتها .

ـ علمت أنها توفيت رحمها الله بعد موت أبيك بمدة قصيرة . أربع أو خمس سنوات

ـ أهذا كل ماتعرفه ؟

ـ أجل . انقطعت أخبارها عنى منذ سنوات طويلة حتى علمت بخبر وفاتها !

ـ لقد حجت مرتين وأدت العمرة بضع مرات ولقيت فى الحجاز شيخا من العلماء يبدو أنها تصوفت على يديه . فلما عادت الى مصر باعت كل ماتملكه فى هبيا وتزوجت ذلك الشيخ ولم يعد أحد يسمع عنها شيئا . كانت تقضى نهارها فى الجامع وليلها فى قراءة الكتب الدينية

ـ عجبا ! ولكن ... من الذى أمدك بكل هــذه المعلومات عنها ؟ ـ فحاولت آن تعود الى الابتعاد عنــه والتظاهر بالرغبة فى السير فى الغرفة ولكنه أمسك بيدها . ولما لم تجب عاد يلح فى السؤال

ـ من الذى يهمه أن يجمع كل هــذه البيانات عن سميرة قبل وفاتها . وأن يطلعنى على ماورد فى يوميات أبيك عنها ... و ... وعنى ؟

وانقضت فترة أخرى دون أن تجيب . فضغط على يدها وهو يدنى وجهه من وجهها ويهمس فى حشرجة

ـ من هو صاحب المصلحة فى آن ينبش الجمر المختفى تحت اللهب الدفين فى هذا الماضى ويشعله من جديد ؟ فتمتمت

ـ أنت تعرفه

ـ عبد الحليم ؟

ـ نعم

ـ ولم ؟

ـ لانه كان يـــود التزوج بى . واتفق أبوه عمى شاكر مع المرحومة والدتى على ذلك . عقب تخرجه وقبل التحاقه بالبعثة وسفره الى الخارج رســا مــزاد أرض

الشيخ عبد الصبور غانم وكيل أعمال سميرة هانم على أحد أقارب عمى شاكر زهدى • فعهد الى عبد الحليم بتحويل تلك الأرض الى حديقة فواكه وأبقى فى العمل معه الشيخ عبد الصبور • بعد أن شهد لمصلحته فى قضية مصرع المرحوم أبى •

ـ ولكن لم لم يتم هذا الزواج ؟

ـ فصمتت قليلا ثم أجابته

ـ لاننى كنت أحب رجلا آخرا •• كنت أحلم بأن أكون زوجة له • له وحده دون غيره

ـ وصارحت عبد الحليم بذلك ؟

ـ نعم • صارحته أكثر من مرة • قبل سفره الى الخارج فخيل اليه أنها أوهام فتاة طائشة وأننى لا ألبث أن أثوب الى رشدى وأقبل الزواج منه • ولكنه لما عادالى مصر بعد ثلاث سنوات وجدنى أشد تعلقا بذلك الرجل

ـ ولم لم تتمى زواجك من الرجل الآخر ؟

ـ لم يكن قد عرف بحبى له بعد ؟

ـ كيف ؟

ـ كنت ألقاه من بعيد دون أن ... أقترب منه . كنت أسمع اليه دون أن أبادله الحديث . كنت أتابع أخباره دون أن يشعر بى . كنت .. قلت لك كنت أحلم بأن أكون له . دون غيره .. الى أن ..

الى أن ألح عبد الحليم فى التزوج بى وأصررت على الاعتذار . فعنى بمعرفة سر ذلك .. وعثر فى غرفتى على ذلك السر ...

ـ رسائل ؟

ـ لا ... صور ... منزوعة من مجلات . وأخبار فى صحف مختلفة ... وكتب .. و .. وقصص تحمل اسمه فاجتهد أن يصرفنى عن ذلك التعلق الغريب برجل لا يحس بى .. وسرد لى مايعرفه عنه منذ الطفولة .. ولم تكن هذه اليوميات فى الواقع عندى كما زعمت لك . وانما كانت عند والد عبد الحليم . عمى شاكر زهدى . تركتها المرحومة والدتى لديه . فأعطاها عبد الحليم لى لكى يثنينى عن التعلق بـ ... بك

وساد مرة أخرى صمت رهيب ...

واحتبست الكلمات على الشفاه .. ولم يعد كل منهما يعبر عما يجول فى خاطره الا بزفرة . أو نظرة ...

وطـال الصمت ٠٠٠ ولمع بريق عبرات فى عينى ناهد ٠ فسألها «هو» فى حنان

ـ ماذا بك ؟ ـ فترددت ثم أجابت

ـ ماتهيبت من أمر كما تهيبت من لقاء أكشف لك فيه هذا السر

ـ أى سر ؟

ـ سر غيرتى من سميرة ٠٠ عندما تبين عبد الحليم أننى كنت أستدرجه الى التحدث عنك خيل اليه أنه مستطيع أن يصرفنى عن التفكير فيك ٠٠ والتعلق بك ٠ بسرد ساخر لمغامراتك في صدر الشباب ٠٠٠ لم يثر غيرتى قط ما رواه لى عن «كليوبى» اليونانية التى تغلب عليك صائغ أمى فى الفوز بها ٠ ولم يشوه الصورة التى رسمتها لك فى خيالى ماكان يتعمد اثارتى به من الاشارة الى ماكنت تكتبه من شعر تغزلا في أخت زميلكم صبحى ابن عبد الخالق عبد الصبور التى شرعت فى الانتحار بعد أن افتضح أمر علاقتها بعامل فى صيدلية ٠٠٠ بغريزة المرأة كنت أحس أنها مغامرات أطفال لاقيمة لها ٠ ولاأثر ٠ ولكن ٠٠٠ بعد أن قرأت هذه اليوميات ٠ بغريزة المرأة نفسها أحسست أنك تعلقت بهذه المرأة ٠٠ سميرة ٠٠ أحبت أبى ٠ وتدلهت فى حبه ٠ واستعانت

بالتزوج من رجل آخر وبالتصوف والعبادة على دفن اللهب الذى كان يشتعل فى أحشائها ثم انتقلت الى رحمة الله . ولكننى لازلت .. لازلت أغار منها .. أغار من امرأة فى سن أمى . فارقت الحياة . لاننى ـ رغم انقضاء هذه السنين الطويلة ـ أتبين بصماتها بين سطور قصصك

فابتسم . وقال لها وهو يداعب أناملها

ـ ربما ... فلست أشك فى أن هذه المرأة قد أسهمت فى توجيه حياتى .. وفى أن غيرتى من تدلهها فى حب المرحوم أبيك قد اشعلت لهبا فى أحشائى خيل الى أنه انطفأ الى أن نبشت هذه اليوميات جمره الدفين فومض من جديد . وأخشى أن يكون قبس من مثل ذلك اللهب الدفين قد اشتعل فى صدر عبد الحليم شاكر بعد أن اطلع على هذه الأوراق .. ـ وأطرق قليلا ثم تمتم ـ ما الذى دفع عبد الحليم الى الشهادة لمصلحة عبد الصبور غانم وما وراء شراء أحد أقاربه لتلك الأرض وتعاونهما معا . عبد الحليم وعبد الصبور فى استغلالها ؟! ولكن .. لم لانبارك نحن الاثنان ذكرى هذه المرأة . ألا ترين أنها جمعت بيننا ؟ فاذا كانت قد تركت بصماتها على قصصى . فان هذه القصص هى التى

قدمتنى اليك .. اننى أرى بصماتها عليك أنت أعمق وأوضح ... تعلقت أنت كما تعلقت هي برجل قبل أن يقدمه أحد اليك . وقبل أن ترينه . وعشت مع هذا الرجل فى الخيال كما عاشت هى مع أبيك . ورسمت لهذا الرجل فى أحلامك كما رسمت هى لأبيك صورة لم يفلح أحد فى أن يشوهها . لنذكرها بالخير ... وسوف نظل نذكرها بكل خير عندما يضمنا بيت واحد ــ وشهقت وقد تصاعد الدم الى وجنتيها

ــ بيت واحد !

ــ أجل . بيت واحد . كزوجين

ــ ولكنك تقول ان اللهب الذى خيل اليك أنه انطفأ قد نبشت هذه اليوميات جمره الدفين فاشتعل . من يدرى الى متى يظل مشتعلا ؟

ــ حتى تتم كتابة هذه القصة . لقد تكشفت لى بعد قراءة هذه اليوميات وبعد لقائك أمور كانت خافية عنى ولن أهدأ حتى أسجلها فى قصة . مداد هذه القصة كفيل باطفاء «هذا» القبس من اللهب . أقول «هذا» القبس لاننى أحس بأن فى أحشائى فراغا ينتظر لهبا جديدا . لهبا متوهجا على رماد الوميض من اللهب الدفين

ــ أدركت ذلك منذ بدأت أقرأ لك • منذ رسمت صورتك فى خيالى قبل أن ألقاك • منذ كانت متعتى أن أتتبع أخبارك • وأن أستدرج الناس الى التحدث عنك • منذ تمنيت أن أكون لك • أنت وحدك • دون غيرك •

ــ أنت التى أشعلت هذاالوميض من اللهب الدفين منذ أن أعطيتنى هذه اليوميات • وبعد أن تحدثت الى عن ذكريات كنت قد خيل الى أننى نسيتها • لن يخمد هذا الوميض الا أنت • لاننى أحس الآن بأن الفراغ الذى كنت أشكو منه لن يملأه الا أنت • أنت دون غيرك• ولن يشعل اللهب ••• الجديد الا أنت ياناهد • أنت وحدك •

وبعد أن خــلا الى نفسه عاد يتصــفح المذكــرات والأوراق التى تركتها ناهد حلمى ومعها صورة بالقلم الرصاص لمحضر تحقيق الشرطة فى مصرع أبيها •• وتبين أن هناك ثغرات فى ذلك التحقيق ••• لم يتابع المحقق بالعناية الكافية الشبهات التى حامت حول الشيخ عبد الصبور غانم •• ثم •• هل كانت زوجة المرحوم اسماعيل حلمى قد علمت بذلك الغرام العجيب الذى ربط بين زوجها والمرحومة سميرة هانم وهو ما اتضح أن بعض أقارب الأسرة على علم به ؟ ثم ماهو سر زواج

أرملة القتيل قبل انقضاء عام على وفاته بمأمور المركز الذى تولى تحقيق الحادث ؟ هل لذلك صلة بأن تحقيق الشرطة لم يثر أية علاقة للزوجة بالحادث مع أن هناك أكثر من شبهة ؟ وشهادة عبد الحليم شــاكر ابن مأمور المركز لصالح الشيخ عبد الصبور غانم ·· ماصلتها بأن أرضه التى كان يقاتل لكى يمنع المرحوم اسماعيل حلمى من الحصول عليها قد رسا مزادها ــ برضاه ــ على أحد أقارب المأمــور وأنه اســتمر يعمل مــع عبــد الحليم مشاركة ؟

واستمر يسائل نفسه : ما الذى دعا أرملة اسماعيل حلمى الى السكوت عن تلك الثغرات فى محضر تحقيق الشرطة ·· ألأنها لم تشعر أن يعلم الناس أنها كانت زوجة مخدوعة ؟ أم لانها خشيت اذا اتسع التحقيق أن يمسها · أو أن يمس عبد الصبور غانم الذى اتضح أنه كان يذيع علاقة سميرة هانم بالقتيل فى أوساط يعلم أنها ستنقلها الى زوجة القتيل ؟ كما اتضح بعد ذلك أنه وثيق الصلة بمن رسا عليه مزاد أرضــه وهــو قريب شاكر زهدى الذى أصبح زوجها قبل انقضاء عام واحد على مصرع زوجها ! وما الذى دعا أرملة اسماعيل حلمى وزوجة شاكر زهدى الى أن تسلم تلك الأوراق الى ابنتها

وقد أحست بدنو أجلها ‥ أيقظة ضمير ؟ أم رغبة حقة في الثأر لدم زوجها ؟‥ وسجل «هو» هذه الخواطر على مفكرة بجانبه ثم مد يده وتناول ملفا من ملفات المكتب وضع فيه المفكرة وكتب على غلافه أمام اسم الموكل : «ناهد حلمي ‥ مدعية بالحق المدني ضد ‥» وترك أسماء الخصوم حتى تثمر ما اعتزم بذله من جهود ٠

الفهــــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٥٠٣٩

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١١٢٠ ـ ١

عند ما والى مؤلف هذه المجموعة نشر قصصه فى مجلات دار الهلال ثم فى مجلتيه « الجامعة » و « ال ٢٠ قصة » ، وصفه النقد العربى بأنه « رأس مدرسة ذات طابع معين ، هى المدرسة التى تتلمذ فيها معظم كتاب القصه القصيرة الراهنة». ولهذا كان محمود كامل هو بحق الأب الشرعى لكل ما يكتب اليوم من قصص صحفية وعندما أعيد طبع بعض مجموعاته القصصية أكد هذا النقد العربى أن المؤلف « رائد فن القصة القصيرة فنان سبق عصره . فقصصه تحمل فى بنائها الفنى منذ سنين طو... بذرة التطور . لأن كل عمل فنى سابق لعصره يحمل دائما أسباب وجوده كعمل فنى متألق فى الزمن الذى يليه »

١٧٥ قرشـا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب